في الاسلوب الأدبي

علي بوملحم
مدير دار المعلمين في النبطية

في الأسلوب الأدبي

الناشر
المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

المطبعة العصرية - تلفون ٧٢٠٦٢٤

مُقدّمة

اول دافع حداني على بحث « الاسلوب » هو جدة الموضوع ــ فنحن لا نعثر في الادب العربي على مؤلفات تناولته سوى كتاب واحد لاحمد الشايب عنوانه : « الاسلوب » وهو دراسة بلاغية ، عيبها الابتسار في معالجة بعض النواحي ، كناحية موضوع الاسلوب ، واغفال نواح اخرى اغفالا تاما ، كناحية مفهوم الاسلوب عند الغربيين •

وجدة الموضوع تجعله صعبا شائكا ، نظرا لندرة المراجع المكتوبة فيه كموضوع مستقل • وقد يستغرب مني ان ازعم ان صعوبة الموضوع هي التي حملتني على الخوض فيه لاننا نعهد السواد الاعظم من الناس يؤثرون العمل السهل الذي لا يكلفهم عناء ولا تعبا ويتملصون من العمل الصعب الذي يقتضيهم مشقة ونصبا • بيد اني اعتقد ان قيمة البحث انما تقاس بمعيار المجهود الذي يبذل لانجازه ، وان عظمته تقوم بتذليل الصعوبات التي تنتصب في وجه الباحث ، وان منزلته تركز على ارجاء المجاهل التي يكتشفها •

وبما ان الغربيين سبقونا في العصر الحديث الى تناول هذا الموضوع، فقد طالعت ما تيسر لي من ابحاثهم ، كما طالعت كتب النقد العربية القديمة والحديثة ، ابتداء من ابن سلام ٢٣٢ هـ٨٤٥م الى طه حسين مرورا بالجاحظ ٢٥٥هـ/٨٦٨م ، وابن قتيبة ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وابن المعتز ٢٩٦ هـ ــ ٩٠٨ م ، وقدامة بن جعفر ٣٣٧هـ /٩٤٩م ، والآمدي ٣٧١ هـ/٩٨٧م ، والجرجاني ٣٩٢ هـ/١٠٠١م ، والعسكري ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م وابن رشيق ٤٥٦ هـ ١٠٧٠م ، والسكاكي ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م ، وابن الاثير ٦٣٧هـ/١٢٣٩ م وابن خلدون ٨٠٨ هـ/١٤٠٥م ، والسيوطي ٩١١هـ/١٥٠٥م ، وغيرهم ، لاننا نستطيع ان نفيد من كتبهم في دراسة بعض جوانب الموضوع •

وكانت اول مسألة طرحت علي هي ما هو الاسلوب ؟ ونظرت فوجدت الغربيين ذهبوا في فهمه مذاهب عدة ، ولكنهم كادوا يجمعون

على انه « طريقة التعبير الخاصة بأديب من الادباء في فن من الفنون » •

اما العرب فقد حددوه في معاجمهم بانه الطريق والفن ووقفوا عند هذا الحد • ولم يتكلم عنه سوى ابن خلدون في مقطع من مقدمته بمعرض حديثه عن الشعر •

وقد تضمنت هذه القطعة فهما عميقا للاسلوب يقرب جدا من فهم انغربيين حديثا له •

ثم تحدثت عن موضوع الاسلوب ، فتكلمت عن طرائق التعبير بما فيها الكلمات والجمل والتراكيب •

وتناولت في فصل ثالث صفات الاسلوب ، فوجدتها ترجع الى ثلاث هي : الوضوح والقوة والجمال •

وعالجت في فصل رابع المؤثرات التي تعمل على تنوع الاساليب واختلافها ، فاذا بتلك المؤثرات على كثرتها تعود الى عاملين هما : شخصية الاديب وموضوع الكلام •

وختمت البحث بتوضيح اهمية الاسلوب في الفن والادب العربي خاصة •

وارجو ان اكون قد وفقت الى بعض ما اريد •

مفهوم الأسلوب عند الغربيين

شعر الغربيون بصعوبة تحديد الاسلوب فقال لامار : « الاسلوب اصعب ملكات الانسان تحديدا » [1] .

وقال بيار جيرود : « ان محتوى كلمة اسلوب واسع الى حد انه ينفجر غبارا من الفكر المستقلة اذا اخضعناه للتحليل [2] » .

لعل مصدر هذه الصعوبة يعود الى اختلاف الاساليب وتعددها ، بحيث غدا من العسير ان نجرد منها جميعا صفة مشتركة ، نعتمدها تعريفا للاسلوب .

واذا استقرينا المعاجم نلفيها تقترح للاسلوب نحوا من عشرين تعريفا تتراوح بين كون الاسلوب « طريقة الكتابة » ، وكونه « طريقة الكتابة الخاصة باديب من الادباء وبفن من الفنون وبعصر من العصور » .

وطريقة الكتابة هذه كانت موضوعا لعلم البلاغة عند القدماء . وقد عني علم البلاغة او البيان بتناول المسائل الثلاث التالية [3] :

١ ــ الفنون الادبية : وذلك لاختيار الفن الادبي الذي يلائم الفكرة المعبر عنها فقسم الادب الى فنون عدة وميز بين فنون الشعر وفنون النثر منذ القديم ، وظهر هذا التقسيم في مؤلفات كثيرة ، اشهرها كتاب الشعر لارسطو . ووضع لكل فن قواعده وميزات اسلوبه .

اما الفنون الشعرية فهي : فن الشعر الغنائي ، الشعر الملحمي ، الشعر المسرحي ، الشعر التعليمي . واما فنون النثر فهي : الخطابة ، التاريخ ، النثر التعليمي ، القصة الخ ... ولكل منها اسلوب خاص .

---

١ ــ المعجم العالمي الكبير مادة اسلوب Le Grand Dictionnaire Universel

٢ ــ الاسلوبية ص ٦ La Stylistique par Pierre Guiraud

٣ ــ الاسلوبية ص ١٢ « « « « « « « «

وبالرغم من النقد الموجه الى هذا التقسيم ، فان مبدأ تفريع الادب الى فنون لا يزال معمولا به الى يومنا هذا •

٢ ــ انواع الاسلوب : عددها ثلاثة هي : [١]

أ ــ الاسلوب البسيط : يقرب مــن اللغة العامية ، ويوافق فني الترسل والمناظرة •

ب ــ الاسلوب الوسط او المعتدل : يوافق الفن التعليمي والتاريخ والملهــاة •

ج ــ الاسلوب الرفيع : وهو في القمة يمتاز بعمق التفكير ، وسمو الشعور ، وسحر التصوير ، ويوافق المأساة والخطابة •

ويقوم هذا التبويب على اختلاف الاشخاص : المتكلمين والمخاطبين واوضاعهم الاجتماعية والفكرية والجنسية وغيرها •

٣ ــ الاشكال التعبيرية : تشمل دراسة المفردات وخصائصها المعنوية والصوتية ، وانواع العبارة البيانية ، كالكناية ، والاستعارة ، والتشبيه ، والقواعد النحوية في تركيب الكلام •

بقيت البلاغة ، كآلة للنقد والتقويم ، سائدة حتى القرن الثامــن عشر ، عندما تعرضت لحملة زعزعت اركانهــا ، اذ اعتبرت اللغة وسيلة للتعبير عن التجربة الذاتية التي عاناها الكــاتب ، ولم تعــد مجرد مرآة تنعكس فيها الاشياء الخارجية • فهي اذن قواعد ذهنية تنبع من الداخل وتعبر بها الفكرة الى الخارج ، وتصور الذات • وقد عبر بوفون عن هذا المفهوم الجديد بقوله « الاسلوب هو الرجل » • وفي رأيه « ان الافكار وحدها هي اساس الاسلوب ، والاسلوب ليس سوى النظام والحركة التي نجعلها لافكارنا » • وجعل شاتوبريان Chateauberiand الاسلوب

---

١ ــ الاسلوبية لبيار جيرود ص ١٦

هبة السماء والعبقرية بعينها [1] • وبذلك فقدت البلاغة سلطتها كمقننة لقواعد الفن وكممثلة للمقياس الفني النقدي •

ومنذ القرن الثامن عشر ظهرت معالم مفهومين للاسلوب لا يزالان يتجاذبان تفكير النقاد الى يومنا هذا هما المفهوم الشكلي والمفهوم الذاتي•

١ ــ المفهوم الشكلي [2] •

انه امتداد لعلم البلاغة القديم ، وقد ناضل دونه في القرن التاسع عشر باللي Bally وغيره ويذهب الى ان الاسلوب هو طريقة التعبير اللغوي عن الافكار ويتناول :

١ ــ الايقاع او القيم الصوتية للفظ وتشمل :
أ ــ علاقة الصوت بمدلول اللفظ •
ب ــ اختلاف الايقاع باختلاف التأثير المتوخى احداثه في السامع•
ج ــ اختلاف الايقاع باختلاف مزاج المتكلم وانفعاله •

٢ ــ قواعد التركيب النحوية والصوتية : كروابط الجمل وعناصرها وازمنة الفعل واشتقاق الاسماء الخ •••

٣ ــ المفردات والتعابير : بمعانيها الوضعية والمجازية ، والاشكال البيانية من استعارات وكنايات وغيرها •

٢ ــ المفهوم الذاتي [3]

يذهب الى ان الاسلوب انما هو طريقة التعبير الخاصة باديب من الادباء وبعصر من العصور وبفن من الفنون • فهو يعنى بالامور التالية :

١ ــ صلة التعبير بشخصية الكاتب اخذا بقول بوفون : الاسلوب هو الرجل •

٢ ــ صلة التعبير بالموضوع •

---

١ ــ الاسلوبية لبيار جيرود ص ٣٢
La Stylistique par Pierre Guiraud
٢ ــ الاسلوبية لبيار جيرود صفحة ٤٥ La Stylistique par Pierre Guiraud
٣ ــ الاسلوبية ص ٦٧

٣ ــ صلة التعبير بالبيئة الطبيعية والاجتماعية •

ويعتبر سبتزر spitzer حامل لواء هذا المفهوم في العصر الحديث، وناشر دعوته • وهو يقول ان النقد الصحيح هو الذي يعمد الى الاثر الادبي ويتخذه نقطة انطلاق ، فيحلله ويدرس من خلال كلماته وتعابيره ، افكار الاديب ومشاعره وتفاعله مع البيئة ، ويجتهد في اظهار وحدته •

ويحاول بيار جيرود ان يوفق بين المفهومين : الشكلي والذاتي ، فيعطي للاسلوب التعريف التالي : « الاسلوب هو هيئة النص التي تحصل من اختيار الوسائل التعبيرية التي تحددها طبيعة الكاتب وميوله » (١) وهو تعريف واسع يضم عنصر التعبير وشكله وطبيعة الكاتب وميوله وهذا يعني ان الاسلوب يتناول :

أ ــ عناصر التعبير اللغوي من مفردات وجمل •

ب ــ صفات التعبير البيانية : وهي ترجع الى الوضوح والقوة والجمال •

ج ــ العوامل المؤثرة في الاسلوب وتعود الى عاملين هما شخصية الاديب والموضوع •

اما المعجم فيورد التعريف التالي للاسلوب « الاسلوب هو الطريقة الخاصة التي يعبر فيها الكاتب او الخطيب عن فكرته » (٢) ويشرح تعريفه هذا فيقول ان الاسلوب يتناول الشكل اللفظي او الكتابي الذي تلبسه الفكرة ، والشكل اللفظي او الكتابي يحصل من اختيار الكلام ونظمه في جمل وتعابير جديدة • وطريقة نظم الكلام هذه هي جوهر الاسلوب وبها يمتاز كل اديب عن سائر الادباء لانها هي المظهر الاصيل للنتاج الادبي ، بينما الكلمات والجمل والفكر مشاعة بين الجميع •

---

١ ــ الاسلوبية لبيار جيرود صفحة ١٠٩
La Stylistique par Pierre Guiraud

٢ ــ المعجم العالمي الكبير مادة اسلوب .
«Le GrandDictionnaire Universel»

مفهوم الأسلوب عند العرب

اذا استقرينا المعجم العربي منذ نشأته حتى عصرنا الراهن ، لا نجد اي تطور في تفسير مادة اسلوب : « فجمهرة اللغة » لابن دريد المتوفى سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م ، تورد للاسلوب التفسير التالي :

سلبت الرجل وغيره اسلبه سلبا وقالوا سلبا فهو سليب ومسلوب وناقة اسلوب اذا فقدت ولدها •

والاسلوب : الطريق والجمع اساليب •

ويقال اخذ فلان في اساليب من القول ، اي في فنون منه •

اما لسان العرب لابن منظور ٧١١هـ/١٣١١م فيثبت الشرح الآتي :

سلب : سلبه الشيء يسلبه سلبا وسلبا واستلبه اياه • والاستلاب الاختلاس •

ويقال للسطر من النخيل اسلوب •

وكل طريق ممتد فهو اسلوب •

والاسلوب الطريق والوجه والمذهب ، يقال : انتم في اسلوب سوء، والجمع اساليب • والاسلوب الطريق تأخذ فيه •

والاسلوب بالضم الفن • يقال : اخذ فلان في اساليب القول اي افانين منه • ولا يختلف «القاموس المحيط»للفيروز أبادي ٨١٧هـ/١٤١٤م عن هذين المعجمين في فهمه للاسلوب حيث نراه يقول :

سلبه سلبا وسلبا اختلسه •

الاسلوب الطريق •

وكنا ننتظر من المعاجم الحديثة ان تبدل شيئا في تفسير الاسلوب او ان توضحه ولكنها لم تفعل ، لم تضف اي زيادة على المعاجم القديمة • فالبستان لعبدالله البستاني (سنة ١٩٣٠م) يردد ما قال به أسلافه في

هــذا الباب :

الاسلوب : الطريق ــ وعنق الاسد ــ والفن مــن القول جمع اساليب ــ والشموخ بالانف يقال انفه في اسلوب ، والسطر من النخيل ــ والطريقة •

وجاء في « اقرب الموارد » لسعيد الشرتوني ما يلي :

الاسلوب : الطريق والفن من القول •

وهكذا نجد التفسير نفسه للاسلوب : الاسلوب هو الطريق وفن القول •

نجده باقيا كما هو لم يطرأ عليه زيادة ولا نقصان على مر العصور • وما عساهم يعنون بكلمة طريق وفن ؟ اذا عدنا الى المعجم نرى ان الفن يعني الضرب او النوع وان الطريق يعني المسلك او النهج ، اذن ليس الاسلوب سوى نوع الكلام او نهجه •

بالرغم من هذا لا يزال الغموض يكتنف مفهوم الاسلوب ، فاذا كان الاسلوب هو فن القول او نوعه ، فما تراهم يعنون بنوع القول ، وما هي انواع الكلام ، وكيف نميزها ، وما هي خصائص كل نوع ؟

اذا التمسنا من الاثار الكتابية ان تعيننا على استجلاء الامر ، لا نعثر على ابحاث تتناول هذه اللفظة بالتوضيح ولعل ابن خلدون ٨٠٨ هـ ١٤٠٥م هو المفكر الوحيد الذي تكلم عن الاسلوب بشيء من البسط، بحيث ألم ببعض نواحيه وسلط قبساً من الضوء على مجاهله ، يقول في مقدمته اثناء حديثه عن الشعر والادب : « ولنذكر هنا سلوك الاسلوب عند اهل هذه الصناعة ــ صناعة الشعر ــ وما يريدون بها في اطلاقهم ، فاعلم انها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب ، او القالب الذي تفرغ فيه • ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته اصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب ؛ ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب الذي هو وظيفة العروض ؛ فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة

الشعرية • وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية ، باعتبار انطباقها على تركيب خاص • وتلك الصورة ينتزعها الذهن مـن اعيان التراكيب واشخاصها ويخرجها في الخيال كالقالب او المنوال ، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب ، والنساج في المنوال ، حتى يتسـع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، او يقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه • فان لكل فن من الكلام اساليب تختص به وتوجد فيه على انحاء مختلفة ••• وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور ، فان العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاءوا به مفصلا في النوعين : ففي الشعر ، بالقطع الموزونة ، والقوافي المفيدة ، واستقلال الكلام في كل قطعة ، وفي المنثور ، يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالبا ، وقد يقيدونه بالاسجاع ، وقد يرسلونه ، وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب [1] » •

فالاسلوب بنظر ابن خلدون قالب ذهني تنصب فيه التراكيب اللغوية بشكل يفي بمقصود الكلام ويتلاءم مع فن القول • ويمكننا ان نسجل الملاحظات التالية على مفهوم ابن خلدون للاسلوب :

١ ــ ان الاسلوب قالب تنصب فيه التراكيب اللغوية • وبهذا يتميز عن تلك التراكيب اللغويـة ، وعن البلاغـة والبيان وعن العروض • فالتراكيب اللغوية ، هي مادة الاسلوب ، وعلما البلاغة والعروض يدرسان خصائص هذه التراكيب غير ان الاسلوب شيء ابعد من هذا كله : انه طريقة صياغة الكلام وعملية هندسة القوالب التي يصب فيها الكلام • وقد استطاع ابن خلدون بدقة ملاحظته ونفاذ بصيرته ان يتجنب الوهم الذي يقع فيه المرء غالبا ، وهو الخلط بين اللغة ، من كلمات وتعابير ، وبين طريقة صياغة هذه التعابير التي هي جوهر الاسلوب •

٢ ــ ان الاسلوب صورة ذهنية للتراكيب يخرجها الخيال كالقالب او المنوال : وبهذا يؤكد ابن خلدون الصلة الوثيقة بين التفكير والتعبير

---

١ ــ المقدمة ص ٥٠٤

فانهما كوجهي الدينار ، على حد تعبير ماكس مولر ،لا يمكن انفصالهما واذا كان الاسلوب صورة ذهنية يخرجها الخيال تحتم أن يعكس تفكير صاحبه وخياله او بالاحرى شخصيته وبذلك يكون ابن خلدون قد سبق بوفون في قوله : الاسلوب هو الرجل •

٣ ــ الاسلوب يتنوع بتنوع الموضوعات : « فان لكل فن من الكلام اساليب تختص به وتوجد فيه على انحاء مختلفة » فللشعر اسلوب يختلف عن اسلوب النثر واسلوب الفخر غير اسلوب الغزل ــ الخ •••

٤ ــ قوام الاسلوب انتقاء التراكيب الصحيحة ثم رصها في القالب الذهني : « ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب فيرصها فيه رصا (أي القالب) كما يفعله البناء » • وقد وفق ابن خلدون كل التوفيق في تشبيه عمل الشاعر بعمل البناء • فالشاعر يجد مادته وهي الالفاظ اللغوية والتراكيب في المعاجم وعلى الالسنة وفي الكتب ، كما يجد البناء أحجاره في الطبيعة ، ومهمة الشاعر بل سر فنه انما يكمن في اختيار الالفاظ والتراكيب الملائمة للفكر المعبر عنها ، وفي المزاوجة بينها ، او رصفها في تعابير جديدة تحمل طابع صاحبها ، تماما كما هو شأن البناء في اختياره لحجارته وفي كيفية رصها في بناء صرح فني جميل •

مقارنة بين مفهوم الغربيين ومفهوم العرب :

ولا نغلو اذا قلنا ان ما ورد في هذه القطعة القصيرة من مقدمة ابن خلدون يوجز معظم المبادىء التي تقوم عليها دراسة الاسلوب عند الغربيين حديثا • فالتوكيد على التفريق بين اللغة والاسلوب باعتبار ان الاسلوب هو طريقة الصياغة اللغوية وليست اللغة ذاتها ، اولا ، والاشارة الى الصلة بين الكاتب والاسلوب ثانيا ، واختلاف الاساليب حسب الموضوعات ، ثالثا ، والذهاب الى ان الفن انتقاء واختيار ، رابعا ، كلها مبادىء يبني عليها الغربيون اليوم ابحاثهم في الاسلوب والنقد • مما يسمح لنا ان نذهب الى ان ابن خلدون سبق الغربيين الى الفهم الحديث للاسلوب ، وانه لو توسع في دراسته هذه لما ترددنا في اعتباره مؤسسا لهذا النوع من الدراسة كما اعتبر مؤسسا لعلم الاجتماع •

ولم يقيض لهذه المبادى التي وضعها ابن خلدون (٨٠٨هـ١٤٠٥م) منذ عدة قرون ، من يدرسها من العرب ويتفهمها ويبني عليها دراسة منظمة ابان هذه الحقبة المجدبة من تاريخنا «عصر الانحطاط» • اماالغربيون فلا ندري اذا كانوا قد اطلعوا عليها وافادوا منها في ابحاثهم بهذا الحقل •

ولكن اذا كان العرب لم يعالجوا الاسلوب على النحو الذي نجده عند الغربيين حديثا ، فهل يعني ذلك أنهم لم يدرسوا شيئا من مسائله على نحو من الانحاء ؟

اذا القينا نظرة على كتب النقد ، نراها تتناول معظم قضايا الاسلوب، ولكن ليس تحت عنوان الاسلوب وانما تحت عنوان البلاغة وفقه اللغة تماما كما هو الحال عند الغربيين في العصور الوسطى • ففي هذه العصور كان علم البلاغة او البيان عند العرب يقابل علم البيان عند الغربيين ويتبوأ مركز الصدارة في الدراسة والنقد • حتى اذا كان العصر الحديث، بادر الغربيون الى احلال الاسلوب محل البيان ، وكتبوا فيه ابحاثا عديدة منظمة ، بينما تلكأ العرب عن الاقدام على مثل هذه الخطوة • وفي الفترة الاخيرة ظهرت عدة مؤلفات بهذا الشأن ، ولكنها لم تستطع ان تتخلص من قيود القدم في محافظتها على نهج الدراسات البلاغية القديمة [1] وان ظهرت فيها النزعة الى التجديد • يقول احمد ضيف في كتابه «مقدمة لدراسة بلاغة العرب » : «لقد اصبحت دراسة البلاغة لدى الامم الحديثة دراسة لكبار نفوسها وعقولها المفكرة او كما يقولون دراسة للتاريخ الطبيعي للنفوس الانسانية ، وان الغرض منها حسب الاصطلاح العلمي تشريح النفوس والافكار لمعرفة الصحيح من السقيم منها ، والحصول على صورة عامة من الحياة العقلية للانسان • قال سانت بوف : لم يبق لدي من الامور الا هذا النوع من التحليل النفسي الذي يمكن ان اعرف به تاريخ العقول • وكل ما أريده من النقد الادبي هو جعل البلاغة فارقا

١ ــ من هذه الكتب : مقدمة لدراسة بلاغة العرب لاحمد ضيف . فلسفة اللغة لجبر ضومط صدر سنة ١٨٩٨ . فن القول لامين الخولي صدر سنة ١٩٤٧ في معهد الدراسات العليا .

طبيعيا للنفوس [1] » .

نعم عندما تتصفح كتب النقد والبلاغة ، نقع فيها على مسائل كثيرة تعنى بها دراسة الاسلوب ، ونستطيع ان نفيد منها في بحثنا هذا ، منهـا دراسة المفردات ، وتركيب الجمل ، ونظم الكلام ، وقواعـده الصرفية والنحوية ، وصفات الكلام التي تشملها علوم الفصاحة والبيان والمعاني والبديع ، وملاحظة تأثير شخصية الاديب بنتاجه ، والاشارة الى تنوع الاساليب بتنوع فنون القول .

غير ان هذه المسائل مبعثرة هنا وهناك ، لم تنسق في دراسة منظمة يطلق عليها اسم اسلوب كما فعل الغربيون حديثا ، وما زالت تنتظر يدا صناعا تلم شعثها وتحسن بناءها في هيكل متسق يرضي ويفيد .

وسوف تتبع المنهج الغربي في بحثنا هذا فنتناول القضايا التالية :

أ ـ موضوع الاسلوب : اي طرائق التعبير اللغوي ويشمل :

١ ـ الكلمات : طولها ـ موسيقاها ـ دلالتها ـ انواعها

٢ ـ الجمل : تركيبها ـ ربطها ـ طولها ـ ايقاعها

ب ـ صفات الاسلوب : وترجع الى ثلاث هي :

ـ الوضوح

ـ القـوة

ـ الجمال

ج ـ اختلاف الاساليب بالعوامل المؤثرة فيه : شخصية الاديب ـ موضوع الكلام .

د ـ اهمية الاسلوب واثره في الادب العربي .

---

١ ـ مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ١٢

موضوع الأسلوب

موضوع الاسلوب هو التعبير اللغوي عن الافكار • وقوامه عنصران: الكلمات والجمل •

أ ـ الكلمات

الكلمة كتلة صوتية تمثل معنى • فاذا لفظنا كلمة نحدث صوتا يتأتى عن تعاقب الاحرف الصامتة والاحرف المصوتة • والاذن تتلقى هذا الصوت الذي تنقله الاعصاب الى مركز السمع في الدماغ حيث يتخذ معنى • اما هذه العلاقة بين الصوت والمعنى فلا تزال سرا عجيبا •

١ ـ الصوت

الى اي حد يستطيع الصوت ان يمثل المعنى ؟ او ما هي العلاقة بين الجرس الصوتي للفظة ومدلولها ؟

أ ـ الاصوات الطبيعية المحاكية : تكونت الكلمات بادىء ذي بدء من الاصوات التي ترافق الحركة للدلالة على الاشياء • ولا تزال بعض الكلمات تحتفظ بخاصة دلالة الصوت فيها على الحركة التي واكبت تكونها مثل خرير ، زقزقة ، وشوشة • ثم اخذت الكلمة تستقل عن الشيء الدالة عليه بحيث اصبح الصوت معنى نحو : نفس وروح وعقل • واخيرا كانت الكتابة اهم وسيلة لنقل الافكار وحفظها •

ويشير السيوطي (٩١١ هـ/١٥٠٥م) في كتابه المزهر الى آراء المتقدمين في اصل اللغة فاذا ثمة ثلاث نظريات هي :

١ ـ اللغة وحي من لدن الله

٢ ـ اللغة اصطلاح او اختراع افراد عباقرة

٣ ـ اللغة محاكاة عفوية للاصوات •

ويميل السيوطي الى هذا الرأي الاخير اذ يقول : « ان اصل اللغات انما هو من الاصوات المسموعات كدوي الريح وخرير الماء ونعيق الغراب•

وهذا عندي وجه صالح » [1] .

وقد لاحظ الخليل بن احمد الفراهيدي ١٧٠هـ وسيبويه ١٨٣هـ وابن جني ٣٩٢هـ وغيرهم علاقة بين اللفظ ومعناه . وذهب بعضهم الى انه يوجد بين اللفظ ومدلوله علاقة طبيعية او مناسبة لازمة . قال الخليل : « كانهم توهموا في صوت الجندب استطالة فقالوا صر ، وفي صوت البازي تقطيعا فقالوا : صرصر . »وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على وزن فعلان انها تأتي لاضطراب الحركة مثل غليان وغثيان ، وكذلك جعلوا تكرير العين نحو جرّح وبشر فجعلوا قوة اللفظ بقوة المعنى . وكثيرا ما يجعلون الحروف على سمت الاحداث المعبر عنها . من ذلك قولهم : خضم وقضم : فالخضم لاكل الرطب والقضم لاكل اليابس [2] .

ب ــ طول الكلمة وعلاقته بمدلولها : تتفاوت الكلمات في عدد الاحرف التي تدخل في تركيبها فبينما نجد بعضها يتكون من حرف واحد اذا بالبعض الآخر يتألف من عدة حروف . ولا علاقة لطول الكلمات المختلفة بسعة معانيها كما لا علاقة لقصرها بضيق المعاني الدالة عليها مثل كبير وصغير ، ومثل قليل وكثير .. ولكن الكلمة ذاتها اذا كثرت حروفها في صيغة المبالغة يزيد معناها . ويشرح ابن الاثير (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) هذه الظاهرة فيقول : « اعلم ان اللفظ اذا كان على وزن من الاوزان ، ثم نقل الى وزن اخر اكثر منه ، فلا بد ان يتضمن من المعنى اكثر مما تضمنه اولا ، لان الالفاظ ادلة على المعاني وامثلة للابانة عنها ، فاذا زيد في الالفاظ ، اوجبت القسمة زيادة في المعاني ، وهذا النوع لا يستعمل الا في مقام المبالغة من ذلك قولهم : خشن واخشوشن ، واعشب واعشوشب وقدر واقتدر » [3] .

وغالبا ما تكون الكلمات القصار اسهل لفظا ، لذلك يؤثر استعمالها، ويعمد بعضهم الى حذف بعض الحروف كما هو الحال في الترخيم . ويرى

---

١ ــ المزهر ج ١ صفحة ١٤
٢ ــ المزهر للسيوطي ج ١ صفحة ٤٠ وما بعدها .
٣ ــ المثل السائر ج ٢ ص ٦٠

السيوطي ان اللفظة المتوسطة المؤلفة من ثلاثة احرف احسن من الاحادي والثنائي والرباعي والخماسي [1] .

٢ ــ المعنى

المعنى ادراك ذهني للاشياء . ويكون المعنى مجردا اذا كان ما يمثله شيئا ذاتيا مثل الحق والخير والشر والشجاعة . أو يكون حسيا اذا كان الشيء الذي يمثله موضوعيا له كيان مستقل عنا مثل الشجرة والمنزل والقلم.

والكلمة تكون اسما او فعلا او حرفا . وكلها لها معان عدا الحروف فمعظمها لا معنى له .

أ ــ الاسم : يلاحظ في الاسم عدة اعتبارات اهمها : [2]

١ ــ التأنيث والتذكير : ثمة اسماء مذكرة واسماء مؤنثة وهذه ظاهرة نجدها في كل اللغات سببها وجود جنسين في الطبيعة ينمازان بصفات عدة ، وقد وردت بعض الاسماء المشتركة بين المذكر والمؤنث مثل « طريق » و « سوق » . ويهمنا ان نشير الى ان الكلمات المؤنثة تستعمل غالبا للدلالة على الرقة والضعف والجمال واللطف كما تستعمل الكلمات المذكرة في موضوع الخشونة والقوة والعنف .

٢ ــ العدد : في العربية ثلاث صيغ للعدد هي : المفرد والمثنى والجمع وتنفرد عن اللغات الآرية بوجود صيغة المثنى التي تخلو منها تلك اللغات

وفي استعمال الضمائر تستبدل بعضها ببعض كما في الحالات التالية:

ــ يستعمل ضمير الغائب مكان ضمير المخاطب عندما يشعر المتكلم أن بينه وبين المخاطب فرقا يجعله يستبعد سهولة الاتصال المباشر به نحو : هل يسمح لي حضرة القائد بالانصراف ؟ (عندما يطلب الجندي الاذن من قائده) ..

ــ يستعمل ضمير المتكلم للجمع مكان ضمير المتكلم للمفرد : نحن بدل انا ، عندما يراد التواضع او المشاركة نقول : سوف تتناول في بحثنا

---

١ ــ المزهر ج ١ ص ٤٩

٢ ــ الاسلوب وتقنيته لمرسال كرسو

Le Style et ses Techniques

pa rMarcel Cressot

هذا القضايا الآتية : بدل سوف اتناول في بحثي القضايا الآتية •

ـ يستعمل ضمير الغـائب المجهول مكان ضمير المخاطب والمتكلم والغائب المعلوم لعدة اعتبارات منها : ان ضمير المتكلم ممقوت لما فيه من الانانية والاعتداد فنقول : يطلب منك ان تحضر الى هنا ، بدل اطلب منك ان تحضر الى هنا • ومنها انه قد يراد اخفاء اسم المتكلم عنه مثل : قيـل لي انك كذاب فهل هذا صحيح ؟•

٣ ـ التعريف والتنكير : النكرة اسم غير مميز عن غيره بشيء بينما المعرفة اسم معين بالنسبة للمتكلم او المخاطب • ويتم التعريف بوسائل عدة في العربية ، منها العلمية ، وال التعريف ، والاضافة ، والنعت ، والاشارة ، والضمير •• ويكون التعريف عـادة للتقدير والاعتبـار بينما يستعمل التنكير للتحقير •

ب ـ الفعل : ينظر في استعمال الفعل الى الاعتبارات التالية :

١ ـ الزمن : الفعل يعبر عن حدث في الماضي او الحاضر او المستقبل• في العربية صيغة واحدة لكل زمان من هذه الازمنة الثلاثة ، فكان الفعل ماضيا او مضارعا او امرا ، اما في اللغات الآرية فقد كثرت الازمنة كثرة كبيرة وتنوعت صيغها •

والفعل المضارع يحدث في الحاضر،ضيق وغير محدود ،اذ هو محصور في اللحظة الراهنة ، لان كل ثانية تنقضي تصبح في عداد الماضي ، وكـل ثانية لم تمر هي في عداد المستقبل • فوجب ان يدل هذا الفعل على حدث يتم في زمن اعلانه وعلى حدث مستمر ، ولهذا يستعمل المضارع في وصف الحركة والتغير •

والفعل المضارع يدل على المستقبل اذا سبق بالسين او سوف • اما الفعل الامر فلا يدل على حدث وانما يعبر عن ارادة في وقوع حدث • واما الفعل الماضي فيدل على حدث تم ولم يعد قائما •

ونلاحظ انه يوجد صيغة للماضي الناقص وان لم تشر اليها كتب القواعد : كان التلميذ يمشي على الطريق المؤدي الى المدرسة •

٢ ــ مزيدات الافعال واوزانها : ان أية زيادة على الفعل تحدث تغييرا في معناه فاوزان الثلاثي المزيد فيه اثنا عشر وكل منها يفيد معنى جديدا : فافعل يفيد التعدية ، وفعل يفيد التكثير ، وفاعل يفيد المشاركة، وانفعل يفيد المطاوعة ، وافتعل يفيد التعمد والمطاوعة ايضا ، وافعلّ يكون للالوان والمبالغة ، وتفعل يكون للتكلف ، وتفاعل يكون للمشاركة واستفعل يكون للطلب ، اما افعوعل وافعول وافعال فتفيد المبالغة .[1]

١ ــ مبادىء العربية لرشيد الشرتوني وجامع الدروس العربية لمصطفى الغلاييني : باب الفعل . وشرح الفية ابن مالك لابن عقيل .

ب ــ الجملة

هي مجموعة كلمات تؤدي معنى ، ولهــذا تتبع صفاتهــا خصائص الكلمات التي تتركب منها من حيث الصوت والمعنى .

١ ــ الايقاع : هو الجرس الموسيقي الذي يتصاعد من تعاقــب اصوات الالفاظ وتقطيعها . ويتمثل بتموجات ينتظمها ما ندعوه بالتقطيع الصوتي للجمل . ويدرس علم العروض هذا الايقاع على أساس الوتد والسبب والفاصلة والقافية في الشعر[١] . اما في النثر فقد يوفر صاحبه كثيرا من القيم الموسيقية بالتسجيع والتوازي والتوازن والترصيع [٢] الخ.

٢ ــ المعنى : المعنى هو الاحكام الذهنية او عمليات التفكير التــي يتمها العقل ضمن الجمل ومرجعها الى الاستنتاج والحــدس وتداعي الافكار والاستقراء والتمثيل .

أ ــ نظم الكلام : عندما يريد الاديب ان يعبر عن افكاره ومشاعره واخيلته ، كيف يجمع هذا الحشد من الالفاظ التي تؤلف الجمل ؟ ان هذه الالفاظ موجودة في المعاجم مبعثرة لا يجمعها سمط ، فكيــف يستطيع الاديب ان يلم شعثها وينظمها هذا النظم العجيب ؟ ان انتقاء هذه الالفاظ المبعثرة في متون اللغة ورصفها في قوالب مختلفة تعجب وتروق لهو سر الفن بما فيه من جمال وسحر .

لقد حاول عبد القاهر الجرجاني ان يعلل سر نظم الكلام وترتيبه بنظم المعاني وترتيبها في النفس يقول : « ان نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتض في ذلك رسما من العقل اقتضى ان يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، فلو ان واضع اللغة كان قد قال : ربض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي الــى فساد .. اما نظم الكلم فليس الامر كذلك لانك تقتفي في نظمها آثــار

---

١ ــ اوزان الشعر لابراهيم انيس

٢ ــ سندرس هذه الموضوعات في فصل الجمال في الاسلوب .

المعاني وترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس .. وهو اذا نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذي معناه : ضم الشيء كيف جاء واتفق . ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشيء والتحبير وما اشبه ذلك،مما يوجب اعتبار الاجزاءبعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان آخر لم يصلح .. ان الالفاظ اذا كانت اوعية المعاني فانها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها . فاذا وجب لمعنى ان يكون اولا في النفس وجب في اللفظ الدال عليه ان يكون مثله اولا في النطق[1] .» .

ويجعل ابن الاثير الاشياء التي يتم بها تاليف الكلام في ثلاثة : انتقاء الالفاظ ثم نظمها ثم تبويبها بحسب الغرض المقصود ، يقول : « يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه الى ثلاثة اشياء الاول منها : اختيار الالفاظ المفردة ، وحكم ذلك حكم اللآليء المبددة ، فانها تتخير وتنتقى قبل النظم .

الثاني : نظم كل كلمة مع اختها في المشاكلة لها ، لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه . وحكم ذلك حكم العقد المنظم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها .

الثالث : الغرض المقصود في ذلك على اختلاف انواعه ، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل اكليلا على الرأس ، وتارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة يجعل شنفا في الاذن ، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة »[2] .

ب ــ التقديم والتأخير : الاسم والفعل هما ركنا الجملة الاساسيان. ولا بد في كل جملة من وجود مسند ومسند اليه . ويكون الفعل مسندا الى الاسم وغالبا ما يتقدمه على عكس ما نرى في اللغات الآرية . بيد ان اي تأخير او تقديم يطرأ على ترتيب هذين الركنين يحدث اختلافا هاما في المعاني ولا سيما في حالات الاستفهام والنفي :

اذا قدمنا الفعل على الاسم وقلنا مثلا : اذهبت انت ؟ كان الشك

---

١ ــ دلائل الاعجاز ص ٤٠

٢ ــ المثل السائر ص ٨٦ ــ ٨٧

في الفعل • واذا قدمنا الاسم وقلنا أأنت ذهبت ؟ كان الشك في الاسم • واذا قدمنا الفعل في حالة النفي وقلنا مثلا : ما فعلت انا ، كان الشك في الفعل • اما اذا قدمنا الاسم في حالة النفي وقلنا : ما أنا فعلت ، جاء الشك في الفاعل او الاسم •

ويعظم الاختلاف في المعنى اذا اجتمع الاستفهام مع التعريف او التنكير • نقول : اجاءك رجل ؟ عندما نريد ان نسأله هل كان مجيء من احد الرجال اليه • فاذا قدمنا الاسم وقلنا : ارجل جاءك ؟ تغير المعنى تماما واصبحنا نسأل عن جنس من جاء •[1]

ويرى ابن الاثير ان التقدم والتأخير يحسنان في حالتين هما :

الاولى : الاختصاص كما في الآية : أفغير الله تأمروني ان اعبد ايها الجاهلون • بل الله اعبد •

الثانية : نظم الكلام وحسن ايقاعه نحو : ايـاك نعبد واياك نستعين ـ بعد الآية ـ الرحمن الرحيم مالك يوم الدين •

أما سوى ذلك فيصبح معاظلة كما في قول الفرزدق :

وما مثله في النـاس الا مملكا ابو امـه حي ابوه يقـاربه [2]

ج ـ الطلب والخبر : تكون الجملة اما طلبية واما خبرية •

١ ـ الجملة الطلبية او الانشائية يراد بها حصول فعل يقوم به الغير واهم صيغها : الامر ، والاستفهام ، والدعاء ، والتمني •

٢ ـ الجملة الخبرية يراد بها افادة الغير ما لم يكن عنده كقولنا : قام زيد • فقد أفدت الغير عما لا يعرف • وهذه الجمل تحتمل الصدق والكذب •

ـ يكون الخبر عما مضى نحو حضر زيد ، او عن الحاضر نحو : زيد حاضر ، او عن المستقبل نحو يحضر زيد •

---

١ ـ دلائل الاعجاز للجرجاني ص ٤٠ وما بعدها
٢ ـ المثل السائر ص ٣٨ ج ٢

ـ ويكون الخبر عاما اذا ظهرت فيه صيغة العموم مثل : كل شيء هالك الا وجهه ، ويكون جزئيا عندما تظهر فيه صيغة الخصوص مثل : بعض الناس اخيار ..

ـ او يكون مهملا عندما لا تظهر فيه الصيغتان معا ولكن نعرف انه عام او خاص من معنى الكلام .

ـ ويكون الخبر مثبتا مثل قام زيد ، او منفيا مثل : ما قام زيد . والنفي يفيد انتفاء الشيء دون حصول حكم في نفوسنا .

ـ ويكون الخبر ـ اخيرا ـ جزما مثل : زيد قائم ، او مستثنى مثل: نجح التلامذة الا زيدا . او شرطا مثل : اذا زرتني اكرمتك . والشرط لا يحصل في النفس منه حكم لانه معلق بامر يمكن ان يحدث او لا يحدث[1]

د ـ الجملة الطويلة والجملة القصيرة : الجملة الطويلة سببها تعقيد الفكرة المعبر عنها في ذهن الكاتب لذا يلجأ الى نوع من اللف والدوران ويسلك سبيلا ملتويا في تعبيره اما الجملة القصيرة فهي نتيجة تسلسل الفكر بنظام في ذهن الكاتب ودليل غزارتها ووضوحها [2] .

وكانت جملة ابن المقفع من النوع الاول لذا يظهر فيها ضرب من الالتواء ، والجهد في السياق ، وتداخل بعض اجزائها في بعض ، ويصعب اعادة الضمائر الى متعلقاتها ، ويشوبها احيانا التعقيد .

بينما كانت جملة الجاحظ قصيرة تتدفق غزيرة سريعة لا يعتورها عياء في السياق ولا تعقيد في التركيب[3] .

هـ ـ الوصل والفصل بين الجمل : قيل لاحدهم ما البلاغة فقال : معرفة الفصل من الوصل [4] . وقد وضعت قواعد دقيقة بهذا الشأن تضمنها علم المعاني . اما الوصل فهو عطف جملة على اخرى لقصد تشريكها فيما للجملة المعطوف عليها من محل من الاعراب نحو : التلميذ يقرأ ويكتب

---

١ ـ نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ص ٤٣ ـ ٤٧
٢ ـ الاسلوب وتقنيته لمرسال كرسو .
٣ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف .
٤ ـ البيان والمتبين للجاحظ باب البلاغة

او لقصد تشريكها فيما للمعطوف عليه من حكم : انما انت شاعر وأخوك عالم • ويقتصر الوصل على الواو لانه يفيد التشريك فقط • وشرط الوصل بين الجملتين ان يكون بين الجملتين جهة جامعة تكون اما اتحادا او تقابلا • واما الفصل فهو ترك العطف • ولكل من الوصل والفصل مواطن يرجع اليها في علم المعاني[1] •

---

١ ــ التلخيص في علوم البلاغة للقزويني الخطيب ص ١٧٥

صفات الأسلوب

اذا تحدثنا عن صفات الاسلوب فانما نتحدث عن الاسلوب المطبوع لا المصنوع ، ذاك الذي ينبع من نفس الاديب كما ينبع الماء من جوف الارض رقراقا عذبا لا تكلف فيه ولا تعمل ، فيه صدق وفيه شخصية وفيه اصالة ، ينسجم مع طاقة الاديب الابداعية ويوافق موضوعه • ويمكن ان ترجع صفات الاسلوب الى ثلاث وهي : الوضوح والقوة والجمال •

ـ الوضوح ـ

الوضوح في الفن يعني الابانة والجلاء بحيث يستطيع القارىء ان يفهم ما يقال • ويتحقق الوضوح في الادب اذا فهم القارىء النص الادبي في يسر وسهولة مع ما ينطوي فيه طبعا من افكار وخيالات • ومرد الوضوح الى ثلاثة امور : جلاء الفكرة وجلاء اللغة وجلاء التصميم •

أ ـ جلاء الفكرة :

ينبغي ان تكون الفكرة واضحة في ذهن الاديب ليأتي التعبير عنها واضحا • فاذا كانت مشوشة او مبهمة في ذهنه ظهرت للقارىء معقدة وعسر فهمها • ولن يقدر للاديب ان يأتي بافكار جلية الا اذا امعن التفكير والتأمل، واختمرت في عقله مواضيع كتابته زمنا طويلا قبل ان يشرع في الكتابة ، والا جاءت افكاره فجة يعوزها النضج ، مضطربة تحتاج الى تنظيم ، مختلطة يلزمها التحديد •

والاديب لا يوجد شيئا من عدم ولا يولد افكارا من فراغ • وانما يستمد من ملاحظاته وتجاربه ومطالعاته ثقافة تظهر في نتاجه • وعلى قدر ما تكون هذه المعارف المختلفة التي تتكون منها ثقافته ، قد تشبعت منها نفس الاديب وتمثلها عقله ، تكون افكاره صافية لا يشوبها التشويش والاختلاط • والخلق لا يقوم بايجاد الافكار بقدر ما يقوم بتوليدها حاملة طابع صاحبها •

وثمة عامل آخر لا يقل اهمية عن السابق في جلاء الفكرة هو مطابقتها

او موافقتها للموضوع المعالج • ولهذا ينبغي ان ينصب انتباه الاديب على الموضوع لكي يعطي فكرة بسيطة مميزة الحدود عما سواها ، وتـامة ببسطها لنا بجلاء دون نقصان •

وتوليد الافكار واضحة يتم بعدة طرق نذكر اهمها :

١ ــ تحديد الموضوع : يتم هذا بشرح الموضوع شرحا سريعا اما سلبا واما ايجابا ، او بتحديد معنى الالفاظ لغويا • او بذكر ماهية الشيء • ويعتبر التحديد جوابا على هذا السؤال الذي لا بد ان نطرحه ما هذا ؟[1]

٢ ــ التحليل : يقوم بتقسيم الفكرة الى عناصرها اما استقراء واما استنتاجا •

٣ ــ الوصف : يقتضي تعدادا لظواهر المميزة للشيء كما تدركهـا الحواس فيذكر اشكال الاشياء والوانها وحركاتها واصواتها •

٤ ــ الغرض والسبب والغاية : البحث عن سبب الموضوع والغاية منه اهم ينبوع في تفجير الافكار وفي معرفتها بجلاء • ولكن ينبغي الا يسرف في التقصي لئلا يثقل على القارىء • وقد ظهر هذا الاتجاه عند ابن الرومي وأبي تمام قديما ، وعند ايليا ابي ماضي وغيره من ادباء المهجر حديثا •

وقد لفتت هذه الظاهرة انتباه النقاد الى شعر ابن الرومي ٢٨٣ هـ ، فقال فيه أبن خلكان ٦٨١هـ/١٢٢٨م : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب • يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويخرجها بأحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » • وقد غالى ابن الرومي في تقصي معانيه واستيفائها وظهرت في غاية الوضوح واقترب شعره من النثر وحرم القارىء من لذة الكشف باللمحة الخاطفة • اما ابو تمام ٢٣٢ هـ فـكان يعتمد كابن الرومي عـلى المنطق والتقصي والاقيسة العقلية ، ولكنه كان يصعب في الاخراج القائم علـى البديع والرمز والتأنق البياني والتصوير المعنوي فيقع في الغموض • قال

---

١ ــ نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ص ٢١ .

فيه ابن رشيق القيرواني ٤٥٦هـ / ١٠٧٠م : «يأتي الاشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ويذهب الى حزونة اللفظ»[1] ، فهو لا يفهم الا بعد اتعاب الفكر وكد الخاطر • وقد سئل يوما : لم لا تقول ما يفهم ؟ فاجاب : ولم لا تفهمون ما اقول ؟

ونسمع ايليا ابي ماضي ١٩٥٩ م يقول باحثا عن سبب الوجود وغايته:

جئت لا اعلم من اين ولكني اتيت

ولقد ابصرت قدامي طريقا فمشيت

وسابقى سائرا ان شئت هذا ام ابيت

كيف جئت كيف ابصرت طريقي ؟ لست ادري •

وعلى عكس هذا الاتجاه كان البحتري يدعو الى استبعاد المنطق واقيسته من الشعر مؤثرا عليها التلميح يقول :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

والشعر لمح تكفي اشارته وليس كالنثر طولت خطبه

٥ ــ الشواهد : كثيرا ما يفزع اليها الادباء في توضيح افكارهم بضرب الامثلة وذكر الشواهد يستقونها من التاريخ واقوال العظماء او بطون الكتب الدينية وغيرها •

ب ــ جلاء اللغة

يتأتى جلاء اللغة او وضوحها من فصاحتها ، والفاظها الوضعية ، ودقتها ، وبساطتها ، وغناها ، وتهذيبها •

١ ــ فصاحة اللغة : الفصيح من الكلام ما كان مستساغ اللفظ

---

١ ــ العمدة ص ١٣٠

وفي الموازنة لزكي مبارك جاء ما معناه : والخير الا يسرف الشاعر في الابهام والتعقيد والتصعيب فيستحيل ادبه الى احاج لا تفهم كشعر الرمزيين وابي تمام . وان لا يمعن في الوضوح والبساطة ليصبح من ذلك النوع الذي يفهمه سواد الناس ص ٤٦ .

ظاهر المعنى • وترجع الضوابط التي تعرف منها فصاحة اللغة الى :

أ ــ غرابة الالفاظ ووحشيتها فتغدو غير مألوفة في الكلام ويحتاج في فهمها الى استقراء المعاجم كقول الشنفرى ٥١٠ م :

دعست على غطش وبغش وصحبتي سعار وارزيز ووجر وافكل

وكقول المتنبي ٣٥٤ هـ :

مبارك الاســم أغرا اللقب كريم الجرشى شريف النسب

ب ــ مخالفة القياس اللغوي : كاستعمال صيغة جديدة لا عهد للغة بها كما يقولون اليوم : هذا امر حياتي بدلا من حيوي وكتعدية بعض الافعال اللازمة مثل عاش ابطاله بدل عايش •

ج ــ الابتذال : ويرجع الى تغيير معنى الكلمة الى غير اصل الوضع• يقولون بهلول في العامية بمعنى الابله والاصل فيها السيد الجامع لكل الخير • او لسخافة الوضع : الطين والطوب ، فالطين افصح ،وكذلك في البر والقمح ، وفي صمت وسكت الخ ••• [1]

د ــ التكرار : كقول ابي تمام ٢٣٢ هـ :

فاسلم سلمت من الآفات ما سلمت سلام سلمى ومهما اورق السلم

وقول الاعشي ٦٢٩ م :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني شاو شلول مشل شلشل شول

قال الآمدي عن الاول : « فان هذا من كلام المنبرسمين » وقال عن الثاني : « وهذا عند اهل العلم من جنون الشعر » [2]

ان التكرار لا يزيد المعنى وضوحا وانما يحمل السأم للاذن وللسان•

هـ ــ التعقيد : ينتج عن عدم دلالة الكلام على المراد اما لخلل في نظم

---

١ ــ انظر في هذا كله المزهر للسيوطي جزء ١ من ص ١٤٨ الى ٢١٤ .

٢ ــ الموازنة للامدي ص ٢٣٠

الكلام واما لانتقال الذهن من المعنى الاول الى المعنى الثاني الذي لازمه والمراد به ظاهرا نحو قول الفرزدق في مدح ابراهيم بن هشام المخزومي :

وما مثله في النـــاس الا ملكـــا ابو امه حي ابـــوه يقـــاربه

وهو يريد ان يقول : وما مثله في الناس حي يقاربه الا ملك ابو امه ابوه • فقد اخل بنظم الكلام من تقديم وتأخير وفصل بين المبتدأ والخبر اللذين هما ابو امه وابوه ، وقد عد الآمدي هذا التعقيد معاظلة[1] .

وكقول المتنبي ٣٥٤ هـ :

كل ما لم يكن من الصعب في الانفس سهل فيهـــا اذا هو كانا

اما انتقال الذهن بين معنيين فيظهر في البيت التالي للعباس بين الاحنف

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

فالمعنى الظاهر لتجمدا هو البخل بالدمع لعدم التأثر ، بينما يقصد هو بالتجمد البخل بالدمع للسرور لقرب الاحبة • والذهن ينصرف الى المعنى الاول الظاهر •

٢ ــ الالفاظ الوضعية :

هي تلك الكلمات التي وضعت في الاصل للدلالة على اشياء معينة ، واستعمال هذه الكلمات بما تدل عليه من دقة وتحديد يؤدي الى الوضوح، ويبعد الابهام والالتباس عن المعاني[2] •

والكلمات التقنية العلمية خير امثلة على الالفاظ الوضعية • الا انه يصعب فهمها على عامة القراء الذين لم يتخصصوا في مختلف العلوم ليلموا بها ، ولا يقوى عـــلى فهمها الا الاخصائيون ، ولـــذا فان الاسراف في استعمالها في الانشاء يدخل الغموض على الكتابة • وعلى الاديب اذا اضطر لذكرها ان يسرع الى توضيحها واحاطتها بالفاظ لغوية مشتركة •

والاديب يؤثر الالفاظ الموحية على الالفاظ التقنية الدقيقة الدلالة•

---

١ ــ المصدر السابق ص ٢٣٦ .
٢ ــ انظر المزهر للسيوطي جزء واحد ص ٤٦ ــ ٥٦ .

ولذا نلقى في الادب اوضاعا لغوية كثيرة لا تحقق الاستعمال الوضعي للالفاظ وتلقي ظلالا كثيفة على المعاني ويمكن ان نرجعها الى الترادف والاستعارة والكناية والمجاز .

أ ــ الترادف : الكلمات المترادفة هي التي تدل جميعا على معنى واحد . ولا تخلو لغة من هذه الظاهرة : اعني اشتراك عدة كلمات في معنى واحد . غير ان العربية تمتاز بكثرة مترادفاتها كثرة غريبة [1] لا نقع على مثلها في اخواتها الساميات ، ولا في سائر اللغات العالمية ، فللسيف الف اسم على الاقل ، وللداهية اكثر من اربعمائة اسم ، وللجمل وما يتصل به بحسب احصاءات دوهامر اكثر من خمسة الاف وستمائة واربعة واربعين اسما ، وكذلك الشأن في المطر والريح والنور والظلام والماء والكرم والبخل والشجاعة والجبن . فلكل منها عشرات الاسماء .

ونستطيع ان نعزو كثرة المفردات والمترادفات في العربية الى ما يلي :

١ ــ كثرة اللهجات الجاهلية التي جمعت عنها اللغة .

٢ ــ انتقال مفردات عديدة الى العربية من اخواتها الساميات وغيرها من اللغات التي احتك العرب باصحابها مثل الفارسية والهندية ، وكان لهذه المفردات نظائر في المتن الاصلي للغة العربية .

٣ ــ ان الاسماء الكثيرة التي يذكرونها للشيء الواحد ليست جميعها اسماء بل معظمها صفات له مثل : الحسام والهندى والقاطع للسيف .

٤ ــ ان كثيرا من الكلمات التي نستعملها مترادفات ،لهافي الحقيقة دلالات خاصة مختلفة وان كانت غريبة مثل : نظر ولحظ وحدج ورنا ، ومثل ساس ودبر . [2]

---

١ ــ لا يرى العسكري فائدة للترادف سوى تكثير اللغة بينما يذكر السيوطي عدة فوائد له فهو يكثر الوسائل الى الاخبار عما في النفس .ويوسع في سلوك طرق الفصاحة واساليب البلاغة .

٢ ــ انظر فقه اللغة لوافي ص ١٦٨ والفروق للعسكري ص ١٠ وما يليها والمزهر للسيوطي ص ٤٠٢ .

ب ــ الاستعارة : [1] هي نقل لفظة من المعنى الذي وضعت له اصلا الى معنى اخر كقول لبيد :

وغداة ريح قــد وزعت وقرة اذ اصبحت بيد الشمال زمامها

فاستعار للريح الشمال يدا وللغداة زماما •

وكقول امرىء القيس ٥٤٠ م يصف الليل :

وليل كموج البحر ارخى سدوله علــي بانــواع الهموم ليبتلــي
فقلت لــه لمــا تمطــى بصلبــه واردف اعجــازا ونــاء بكلكــل
الا ايهــا الليل الطويل الا انجل بصبح فمــا الاصبــاح منك بامثل

فقد جعل لليل ظهرا وعجزا وصدرا •

والاستعارة في حقيقتها تشبيه حذف احد طرفيه فهي مجاز لغــوي علاقته التشبيه الا ان الاستعارة اقوى من التشبيه لانها كما يقول الجرجاني ٣٩٢ هـ : اوعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه • واذا أبقينا على التشبيه غدا الكلام غثا مبتذلا كما يقول ابن الاثير ٦٣٧ هـ/١٢٣٩م في مثل قول الشاعر :

فامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت عــلى العناب بالبرد

فلو قلنا : فامطرت دمعا كاللؤلؤ مــن عين كالنرجس ، وسقت خدا كالورد ، وعضت على انامل مخضوبة كالعناب باسنان كالبرد لخرجنا الى كلام غث ولزال الوجه الجميل الذي احدثه اختفاء التشبيه •

وكانوا يفضلون الاستعارة القريبــة المحمولة على التشبيه عــلى الاستعارة البعيدة • يقول ابن رشيق ٤٥٦هـ/١٠٧٠م « واذا استعير للشيء ما يقرب منه ويليق كان اولى مما ليس منه في شيء • ولو كان البعيد احسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول ابي نواس ١٩٨ هـ :

بح صوت المــال ممــا منــك يشكــو ويصيــح[2]

---

١ ــ عرفها الرماني بقوله : الاستعارة استعمال العبارة على غير ما وضعت له في اصل اللغة . انظر ايضا مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٩٦ .
٢ ــ العمدة باب الاستعارة ص ٢٧٠

وعاب الآمدي ٣٧١هـ/م استعارات ابي تمام في هذا البيت :

ندى ملك من ايكة الجود لم يزل على كبد المعروف من فعله برد

وقال : هذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد عن الصواب وانما استعارت العرب المعنى لما ليس له اذا كان يقاربه او يدانيه ويشبهه في بعض احواله .

ولعل اهم أداة تستخدمها المدرسة الرمزية في ادائها الغامض الاستعارة التي اذا بعدت عن التشبيه اكتنف المعنى الابهام . يقول الآمدي في ابي تمام : كأنهم يريدون اسرافه في طلب الطباق والجناس والاستعارة واسرافه في التماس هذه الابواب وتوشيح شعره بها حتى صار كثير مما اتى به من المعاني لا يعرف ولا يعلم غرضه الا مع الكد والفكر وطول التأمل ومنه ما لا يعرف معناه الا بالظن والحدس [1] .

ج ــ الكناية : الكناية ضد التصريح وهي كلام له معنيان أحدهما ظاهر والآخر باطن. والمتكلم به يريد المعنى الباطن ويستره بالظاهر مثل : فلان طاهر الذيل ورحب الصدر .

وقد تغرق الكناية في اخفاء المعنى فتكون لنا[2] :

ــ الاشارة مثل قول ابراهيم الموصلي :

جعلنا السيف بين الخد منه وبين سواد لمته عذارا

اشارة الى هيئة الضربة التي اصابه بها دون ذكرها اشارة لطيفة دلت على كيفيتها .

ــ الرمز مثل قول الشاعر :

عقلت لها من زوجها عدد الحصى من الصبح او مع جنح كل اصيل

يعني اني لم اعطها عقلا ولا قودا بزوجها الا الهم الذي يدعوها الى عد الحصى .

---

١ ــ موازنة ص ١١٦

٢ ــ انظر مفتاح العلوم للسكاكي ص ٢١٣

ـ التلميح مثل قول ابي نواس يصف يوما مطيرا :

وشمسه حرة مخدرة ليس لها في سمائها نور

ـ اللغز مثل قول ابي الرمة يصف عيون الانسان :

واصغر من قعب الوليد ترى به بيوتا مبناتا واودية قفرا .

ـ اللحن وهو كلام يعرفه المخاطب بفحواه مثل قول الشاعر يحذر قومه :

خلوا من الناقة الحمراء ارحلكم والباذل الاصهب المعقول فاصطنعوا

ان الذئاب قد اخضرت مرابعها والناس كلهم بكر اذا شبعوا

اراد بالناقة الحمراء الدهناء وبالجمل الاصهب الصمام ، وبالذئاب الاعداء : الناس الاعداء اذا جاء الربيع وشبعوا طلبوا الغزو[1] .

د ـ المجاز : معنى المجاز طريق القول ومأخذه وهو مصدر جزت مجازا .والمجاز في كثير من الكلام ابلغ من الحقيقة وأحسن موقعا في القلوب والاسماع . وما عدا الحقائق من جميع الالفاظ ثم لم يكن محالا فهو مجاز احتماله وجوه التأويل [2] .

والمجاز سواء اكان مرسلا لغويا مثل قطعت السكين ، وامطرت السماء نباتا ، ام كان عقليا يقوم على اسناد الفعل الى غير صاحبه مثل ليلة راقصة وقامت القرية ، فانه يكثر في كلام العرب ، حتى قال ابن قتيبة ٢٧٦هـ ٨٨٩م «لو كان المجاز كذبا لكان اكثر كلامنا باطلا» .او يقول السيوطي « وانما يقع المجاز ويعدل اليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه فان عدمت الثلاثة تعينت الحقيقة »[3] .

٣ ـ الدقة : تحصل من استعمال الكلمات الوضعية الموافقة تمام الموافقة للمعنى . فثمة تعبير واحد يصور الفكرة الواحدة ونحن نبحث عنه وطالما اننا لم نعثر عليه فاننا نأخذ بالدوران حول الفكرة مستعملين

---

١ ـ انظر العمدة ص ٣٠٥ وما يليها في مبحث الكناية والاستعارة

٢ ـ العمدة ص ٢٦٦ .

٣ ـ انظر المزهر السيوطي ص ٣٥٦ ومفتاح العلوم للسكاكي ص ٢٥٨ .

تعابير قريبة وقد يؤدي بنا ذلك الى الاغراب والاطناب والمبالغة والتعقيد. والاديب المطبوع يترك كلامه يسيل على اسلة قلمه كما يسيل الماء من الينبوع رقراقا صافيا ؛ فلا يجعلنا نشعر انه يعاني جهدا في الكتابة .

٥ ــ تهذيب اللغة : لا يوجد فن كامل غير قابل للتحسين . من هنا كان مبدأ التنقيح والتثقيف في الادب ، وقد طبقه الادباء منذ الجاهلية ، فزهير بن ابي سلمى ٦١٥م لقبت قصائده بالحوليات لانه كان يقضي حولا في اخراج قصيدته ، يقول ابن رشيق : والشعر مطبوع ومصنوع . فالمطبوع هو الاصل الذي وضع اولا وعليه المدار . والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف شعر المولدين .. حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب [1] وكان الاصمعي يقول : زهير والنابغة من عبيد الشعر .ويقول ايضا: ولا يكون الشاعر صادقا حتى يتفقد شعره ويعيد فيه نظره فيسقط رديئه ويثبت جيده ويكون سمحا بالركيك منه مطرحا له راغبا عنه فأن بيتا جيدا يقاوم الفي رديء . وقال امرؤ القيس ٥٤٠م :

اذود القوافي عني ذيادا ... ذياد غلام جريد جرادا
فلما كثرن وعيينه ... تخير منهن شتى جيادا
فأنزل مرجانها جانباً ... وآخذ من درها المستجادا

ويقال ان ابا نواس ١٩٨هـ كان يفعل هذا الفعل فينفي الدني ويبقي الجيد . وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحولي المحك [2] .

١ ــ العمدة ص ١٢٩ .
٢ ــ المصدر نفسه

ج ــ جلاء التصميم

ما هو التصميم ؟ .. التصميم هو تخطيط الموضوع او هندسته . وهو الشكل الذي تتخذه الافكار ، في سبيل انشاء الاثر الادبي ، بطريقة تفهم النسبة المنطقية بينها بوضوح وسهولة .

فالتصميم اذا ترتيب الافكار وتنسيقها بشكل منطقي ليسهل فهمها . ونلاحظ في التصميم ثلاثة اقسام : بداية ــ وسط ــ نهاية .

١ ــ البداية : هي باب الموضوع الذي نلج منه الى الداخل . ولها غايتان بالنسبة للقارىء او السامع . الاولى : ارشاده الى الموضوع ما هو ؟. والثانية : اثارة فضوله لمعرفة ما سوف يقال حول الموضوع . وينبغي ان تكون البداية فكرة :

١ ــ تعبر عن جوهر الموضوع .

٢ ــ وفي منتهى الشمول بحيث لا تتناول جانبا من الموضوع فقط.

٣ ــ بليغة موجزة ايحائية استفهامية تثير انتباه القارىء وتفكيره .

٢ ــ الوسط : هو جسم الموضوع واكبر اقسامه . فيه تشرح الافكار وتناقش وتتعاقب الاحداث وتتأزم وتتفاعل .

٣ ــ النهاية : هي النتيجة التي اسفرت عنها جولات الاديب في رحاب الموضوع وتطوافه في ارجائه . فهي اذن الكلمة الاخيرة في البحث ، وهي ضرورية ، لانها اتمام للموضوع او اكمال له . والكمال هو سر الفن . ولا ينبغي للاديب ان يترك القارىء معلقا .

ليس التصميم اول خطوة في الانشاء ، وانما يجب ان تسبقه خطوة التثقف بجمع معلومات وافية حول الموضوع وتفكير عميق في ما جمع . فاذا تم للكاتب هذه الثقافة وهذا التقمش انكب على موضوعه يمعن فيه النظر ، فتتوارد على ذهنه افكار عليه ان يسجلها كما تتوارد دون اهتمام بتنقيح او تبويب . ثم انه بهذه الافكار ينظم تصميمه .

وشروط التصميم تعود الى اثنين هما : الوحدة والحركة .

١ ــ الوحدة: تقوم بربط جميع الافكار الثانوية بفكرة رئيسية هي محور الموضوع • واذا تحققت هذه الوحدة اتيح للذهن ان يفهم الاثر الادبي بسرعة وسهولة •

٢ ــ الحركة : هي سياق التوسيع المستمر وتطور الاحداث من مقدمة الى عقدة الى حل • والترديد يعتبر اكبر عائق للحركة لانه يشلها ويوقف سيرها • ويظهر الترديد بتكرار الفكرة اكثر من مرة وهذا التكرار ممقوت لانه يجلب الثقل والبرودة والسأم • كما ان الحشو والتطويل يسيء الى اندفاع الحركة ونشاط الذهن • ولهذا وجب على الاديب ان يضحي بكل فكرة خارجة عن الموضوع وان يتجنب الرتابة والحشو فخير الكلام ما قل ودل •

التخلص او الخروج : هو الانتقال من فكرة الى اخرى • فكيف نستطيع ان نعبر من مسالة الى اخرى دون ان نقطع سياق التفكير ؟ قد يتم ذلك بذكر بعض العبارات مثل : انتهينا من الكلام عن كذا وننتقل للكلام عن كذا ••• او كما يفعل الجاهليون بقولهم : « دع هذا وعد عن ذا » كما يقول زهير :

دع ذا وعد القول في هرم شيخ البداة وسيد الحضر •

بيد ان التخلص الافضل هو الخروج الطبيعي والمتنوع • ويكون التخلص طبيعيا اذا ارتبطت الفكرة اللاحقة بسابقتها ارتباطا منطقيا كارتباط العلة بالمعلول بحيث تنحدر الافكار وتسلسل ويتولد بعضها من البعض الآخر • اما التنوع فيقوم باستعمال روابط مختلفة مثل احرف الجواب والاستفهام والعطف الخ •••

واذا نظرنا الى القصيدة العربية الجاهلية لا نجد اثرا للتصميم المنطقي • فشرطا التصميم : الوحدة والحركة مفقودان فيها • وتظهر القصيدة مفككة الاوصال لا تجمع ابياتها رابطة فكرية • فاذا حذفنا ابياتا لا يختل المعنى • واذا قدمنا ابياتا او اخرناها لا نشعر باى تبديل او خلل في النظم • فالوحدة هي وحدة البيت وكل بيت قائم بذاته لا يتعلق بالذي يتقدمه او يليه بشيء •

ثم ان القصيدة لا تدور حول موضوع واحد ، وانما يحشر الشاعر ضمن ابياتها التي لا تتجاوز المائة عدة موضوعات • فيستهلها بالغزل والوقوف على الاطلال التي تذكره بالاحبة ، ثم ينتقل الى الوصف ، فيصف ناقته أوجواده الذي يمتطيه ، والصحراء التي يتيه في فيافيها ، والمطر الذي يهطل عليه ، ثم ينتقل الى الفخر بنفسه وقبيلته ،ثم ينتقل الى المدح او الهجاء او غيره من موضوعات غنائية [1]•

وقد ذهب بعضهم الى القول ان للقصدية الجاهلية تصميما • يتمثل بهذا الترتيب او التبويب الذي ذكرته من غزل الى وصف الى فخر الخ•• وان الوحدة فيها ليست عقلية منطقية وانما هي نفسية تصور انطباعات الشاعر في بيئته الصحراوية •

ونستطيع ان نعلل فقدان الوحدة في القصيدة الجاهلية بالامور التالية :

١ ــ العربي يعتمد على بديهته اكثر مما يعتمد على عقله عندما ينظم الشعر :

يقول الجاحظ ٢٥٥هـ/٨٦٨م : ان الهند لهم معان مدونة وكتب مجلدة ، ولليونان فلسفة ومنطق ، ولكن صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان ولا موصوف بالبيان ؛ وفي الفرس خطباء ، الا ان كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، فانما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة • وكل شيء للعرب ، فانما هو بديهة وارتجال ، وكانه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة في فكر ولا استعانة ••• [1]

٢ ــ العربي لا ينظر الى الاشياء نظرة عامة شاملة ، وهذا من طبيعة العقل العربي كما يلاحظ بعض المستشرقين والشهرستاني في « الملل

---

١ ــ البيان والتبيين ص ١٥ ج ٣ . طبعة السندوبي .

٢ ــ البيان والتبيين ص ١٥ .

والنحل » واحمد امين في « فجر الاسلام » يقول : [1]

« فالعربي لم ينظر الى العالم نظرة عامة شاملة كما فعل اليونان مثلا . لقد القى اليوناني ــ أول ما تفلسف ــ نظرة عامة على العالم فساءل نفسه ، كيف برز هذا العالم الى الوجود ؟ وكم هو ؟ اما العربي فلم يتجه هذا الاتجاه ولا بعد الاسلام ، بل كان يطوف فيما حوله فاذا راى منظرا خاصا اعجبه تحرك له وجاش صدره بالبيت او الابيات من الشعر او الحكمة او المثل . وهو اذا نظر الى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكرة بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه .

وهذا هو السر الذي يكشف لك ما ترى في ادب العرب من نقص وما فيه من جمال . فاما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة ادبية نظما او نثرا من ضعف المنطق وعدم تسلسل الافكار تسلسلا دقيقا، وقلة ارتباطها ببعض ارتباطا وثيقا . حتى لو عمدت الى القصيدة ــ وخاصة في الشعر الجاهلي فحذفت منها جملة ابيات ، او قدمت متاخرا او اخرت متقدما ، لم يلحظ القارىء او السامع ذلك وان كان اديبا ، ما لم يكن قد قرأها من قبل. وهذا النقص تلمحه فيما يكتب في الموضوعات الادبية . فاذا قارنت بين ما يكتبه الجاحظ في الخطابة او الوصف ، وما يكتبه ارسطو في ذلك ، رأيت الطبيعتين مختلفتين تمام التخالف ... وهذا النقص ايضا تلمحه في كتب الادب لانها تاثرت بطبيعة الاديب نفسه . فاذا نظرت في كتاب كالاغاني او العقد الفريد او البيان والتبيين او الحيوان لا تجد موضوعا واحدا القيت عليه نظرة عامة دفعة واحدة ثم وضع في مكان واحد ، ولكن هنا لمحة وهناك لمحة ، وتدخل في باب فيسلمك الى باب آخر لاقل مناسبة ، حتى يعيا الباحث اذا اراد ان يقف على كل ما كتب في موضوع معين ، مع اعترافنا بما في هذا التنقل من لذة وطلاوة . »

وبالرغم من ان الشعر الاموى يعتبر امتدادا للشعر الجاهلي من حيث الخصائص الآنفة الذكر ، فاننا نجد ظاهرة وحيدة في وحدة الموضوع

---

١ ــ فجر الاسلام ص ٤١ .

ووحدةالقصيدة تبدو فيالشعر الغزلي الذياستقل بعد انكان ممزوجا مع سائر الفنون في الادب الجاهلي • ونجد ايضا بعض هذه الظاهرة الوحدوية في بعض قصائد خمرية للوليد بن يزيد ٧٤٤ م •

وفي العصر العباسي خطت القصيدة العربية خطوة اخرى نحو الوحدة والتصميم ولا سيما في شعر الخمرة عند ابي نواس١٩٨ هـ ، والوصف عند ابن الرومي ٢٨٣هـ • ولم تحقق الوحدة كاملة الا في العصر الحديث ،فقد ثار الادباء المعاصرون على التقاليد القديمة في بناء القصيدة والتأليف ودعوا الى نبذها • كما انه استقام لهم ، من احتكاكهم بالادب الغربي واتساع ثقافتهم ، ما دفعهم الى الحرص على حسن التأليف والتصنيف والتنظيم • وكانت الثورة الاولى قد اعلنها ابو نواس في القرن الثامن •

« ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب بل يهجم على ما يريده مكافحة ويتناولهمصافحة وذلك عندهم هو :الوثب والبتر والقطع والكسع والاقتضاب ••• والقصيدة اذا كانت على تلك الحال كانت بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء • قال ابو الطيب : ٣٥٤ هـ •

اذا كان مدح فالنسيب المقدم اكل فصيح قال شعرا متيم ؟ •

فانكر النسيب وزعموا ان اول من فتح هذه الباب وفتق هذا المعنى ابو النواس ١٩٨ م بقوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقال ايضا :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولقد اهتم الادباء العرب بالمبدأ والنهاية ليستطيعوا ان يصيبوا اكبر حظ من التأثير على قارئهم او سامعهم • يقول ابن رشيق ٤٥٦هـ/١٠٧٠م: قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر لقد طار اسمك واشتهر فقال : لاني اقللت الحز وطبقت المفصل ، واصبت مقاتل الكلام وقرطست نكت الاغراض بحسن الفواتح والخواتم ولطف الخروج الى المدح والهجاء ، وقد صدق لان حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح ، ولطافة الخروج الى المديح سبب ارتياح الممدوح ، وخاتمة الكلام ابقى في السمع

والصق في النفس لقرب العهد بها . فان حسنت حسن وان قبحت قبح والاعمال بخواتيمها ... وبعد فان الشعر قفل اوله مفتاحه . وينبغي للشاعر ان يجود ابتداء شعره فانه اول ما يقرع السمع وبه يستدل على ما عنده من اول وهلة . [1] .

وقد عللوا ايثارهم للاستهلال الغزلي لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول ، بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل الى اللهو والنساء ، وان ذلك استدراج الى ما بعده . اما المتاخرون فقد وصفوا اطلال الاحبة ونسبوا في مطالع قصائدهم تشبيها وتقليدا للقدماء .

وفي الانتهاء توخوا الاحكام وكرهوا الدعاء والبتر . يقول ابن رشيق : « اما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة واخر ما يبقى منها في الاسماع وسبيله ان يكون محكما : لاتمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعده احسن منه » .

ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة ، وفيها راغبة مشتهية ، ويبقى الكلام مبتورا كانه لم يتعمد جعله خاتمة « وقد كره الحذاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء لانه من عمل اهل الضعف الا الملوك فانهم يشتهون ذلك » [2] .

اما التخلص فقد خلطوا بينه وبين الاستطراد وذهبوا فيه مذهبين ذكرهما ابن رشيق في عمدته . اما الاول فيستفاد من قوله : واولى الشعر بان يسمى تخلصا ما تخلص فيه الشاعر من معنى الى معنى ثم عاد الى الاول واخذ في غيره ثم رجع الى ما كان فيه كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها الى النعمان بن المنذر وهي العينية .

اما الثاني فيقوم بذكر بعض الالفاظ مثل « دعذا » « وعد عن ذا » .

ليس التصميم خاصا بالادب فلا بد منه في كل ميدان من ميادين الفكر : في النحت ، في العمارة ، في الاقتصاد ، في الحرب الخ .. وفوائده

---

(١) عمدة ص ٢١٨ .
(٢) العمدة ص ٢٣٩ .

جزيلة فهو يعلمنا التفكير المنظم وهو الذي يقود تفكيرنا الى النتائج المنطقية • وهو في الادب الصق صفة في الاسلوب • وسر الفن الادبي ليس في ايجاد الافكار بقدر ما هو في طريقة التعبير عنها • الافكار مشاعة يحق لك ان تتناولها حيث تجدها اما الطريقة أو القالب فهو ما لا يسمح لك البتة في اخذه عن الغير •

القوة

الاسلوب القوي هو تعبير عن انفعال قوي عند الكاتب وعن ايمان بصحة ما يذهب اليه من افكار • فاذا اطلع عليه القارىء او السامع اهتز كيانه والهب عاطفته وحفز عقله على التفكير •

والقوة في الاسلوب اساسها امران : كثافة الافكار وبلاغة التعبير يتضافران على تكوين السياق الانشائي المندفع •

١ ــ كثافة الافكار :

لعل اعظم مبدأ في البلاغة ان تعبر بقليل من اللفظ عن كثير من المعنى • فهذه الافكار المزدحمة في قالب ضيق من التعبير لا تلبث ان تنفجر في عقل القارىء محدثة هزة عنيفة وروعة عظيمة • اما الادب الذي تندر فيه الافكار ، فيبدو فارغا فاترا لا يوقظ فينا وعيا على جديد او تنبيها لطارىء او كشفا لمجهول • هو ضرب من الثرثرة تمل ولا نعثر فيها على طائل • فاذا سمعنا هذه الابيات للمتنبي في عتاب سيف الدولة :

يا اعدل الناس الا في معاملتي فيك الخصام وانت الخصم والحكم
اعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الانوار والظلم
اذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليث يبتسم

اخذنا بغنى افكارها ، وصدق لهجتها لاقتناعنا بصحة ما يذهب اليه، وسيطرته على نفوسنا ، بحيث اصبحنا لا نملك الا ان نقول : يا للروعة ويا للسحر • ونفرغ وفي ذهننا اصداء متجاوبات •

واذا سمعنا ابن الرومي ٢٨٣ هـ ينشد في العدو والصديق :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
ولو كان الكثير يطيب كانت مصاحبة الكثير من الصواب
ولكن قلما استكثرت الا سقطت على ذئاب في ثياب
فدع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
وما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الري في النطف العذاب

صرخنا به كفى ، كفى لقد فهمنا فلسنا ببله لكي نحتاج الى كثـرة هذا التكرار لنفهم « أن الخير في الاقلال من الصحاب » • فلقد عرفنـا ما تريد منذ البيت الاول • ان شعر ابن الرومي فيه فكر وفيه استقصاء بيد ان افكاره ليست كثيفة وتعبيره ليس متينا ولهذا جاء اسلوبه ضعيفا• اما المتنبي فقد جمع في شعره كثرة الافكار وجدتها الى متانة التعبيـر وايجازه فبدا اسلوبه قويا شديد الاسر •

٢ – بلاغة التعبير •

حدها : كثرت الاقوال في البلاغة • لقد سئل بعض البلغاء : مـا البلاغة ؟ فقال : قليل يفهم وكثير لا يسأم ــ وقال اخر : البلاغة اجاعـة اللفظ واشباع المعنى ــ وسئل اخر فقال معان كثيرة في الفاظ قليلة •

وقال خلف الاحمر : البلاغة لمحة دالة

وقال الخليل بن احمد : البلاغة كلمة تكشف عن البقية

وقال المفضل الضبي : قلت لاعرابي : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : الايجاز من غير عجز والاطناب من غير خطل •

وقيل لخالد بن صفوان : ما البلاغة ؟ فقال : اصابة المعنى والقصد الى الحجة ••

وقال ابن المعتز : البلاغة بلوغ المعنى ولم يطل سفر الكلام •

وسئل الكندي عن البلاغة : فقال : ركنها اللفظ ، وهو على ثلاثـة انواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع تعرفه وتتكلم به ،ونوع تعرفه ولا تتكلم به ، وهو احمدها • (١)

وحددها ابن المقفع بقوله : البلاغة هي التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها • فاياك والتتبع لوحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة فان ذلك هو العي الاكبر وحدد قدامه بن جعفر البلاغة بانها « القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام وحسن النظام وفصاحة اللسان » (٢)

---

(١) عمدة ص ٢٤٢

(٢) نقد النثر ص ٧٦

واورد الجاحظ ٢٥٥هـ/٨٦٨م عدة تعريفات للبلاغة فقال : واحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه .

ـ قيل للفارسي ما البلاغة ؟ فقال : « معرفة الفصل من الوصل » .

ـ وقيل لليوناني ما البلاغة ؟ فقال : « تصحيح الاقسام واختيار الكلام » .

ـ وقيل للرومي ما البلاغة ؟ فقال : « حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة .[١] .

ـ وعرفها جبر ضومط بانها : « الاقتصاد على انتباه السامع »[٢]

يمكننا ان نخلص من جميع هذه الاقوال الى تحديد البلاغة بما يلي :

« البلاغة هي ابلاغ المعنى بطريق صالح من التعبير » . فيحمد فيها الايجاز اذا لم يخل بمعناه ويحمد فيها الاطناب اذا لم يكن حشوا او تطويلا . وتحمد فيها السهولة اذا لم تصبح ركاكة واسفافا . فينبغي ان يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال مع فصاحته .

اما فصاحة الكلام فقد تكلمنا عنها ويميزها ابن الاثير ٦٣٧هـ/١٢٣٩م عن البلاغة من جهتين : جهة الخاص والعام وجهة المركب والمفرد اذ قال : والبلاغة شاملة للالفاظ والمعاني وهي اخص من الفصاحة كالانسان من الحيوان :

فكل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا . وكذلك يقال كل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا واللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة[٣] .

اما مطابقة الكلام مقتضى الحال فيعني مراعاة الامر الداعي للتكلم فتراعى احوال المتكلم والمخاطب ومقام الكلام من ايجاز واطناب وتلميح

---

(١) البيان والتبيين ص ١٦
(٢) فلسفة اللغة ص ١٢
(٣) المثل السائر المقدمة الفصل الثامن

وتصريح ورقة ورصانة وفرح وحزن وقد قيل لكل مقام مقال .

وقد قبح من ابي نواس ١٩٨ هـ قوله يمدح بعض بني برمك وقد بنى دارا :

استهل بقوله :

اربع البلى ، ان الخشوع لباد عليك ، واني لم اخنك ودادي

وختمها بقوله :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم بني برمك من رائحين وغادي .

فتطير البرمكي واشمأز حتى كلح وظهرت الوجمة عليه وقال : نعيت الينا انفسنا . [1] .

وقال ابو النجم : وقد استنشده هشام بن عبد الملك :

والشمس قد كادت ولما تفعل كأنها في الافق عين الاحول

وكان هشام احول . فامر به فحجب عنه ، وقد كان من قبل من خاصته يسمر عنده ويمازحه .

ومن هذه الجهة ما عابوا على ابي الطيب المتنبي ٣٥٤ هـ قوله لكافور اول لقائه :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا

ومن اهم الظواهر البلاغية التي تكمن فيها قوة التعبير ما يلي :

١ ــ الاحتباك : معنى الاحتباك الشد والاحكام . وحبك الثوب اذا سد ما بين خيوطه من الفرج واحكمه بحيث يمنع عنه الخلل مع بقاء الحسن والرونق . وهو يتناول في الانشاء احكام الكلام بحيث لا يتراخى او يضعف لحذف او ذكر او تقديم او تذكير وما شاكل . [2] .

فالاحتباك اذن هو سبك الالفاظ سبكا شديدا حتى يظهر الكلام كلالا انفصام بين الفاظه ، لا تبدو فيه الفاظ متقلقلة او نافرة او نابية وحتى « تتحد اجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها

(١) انظر العمدة ص ٢٢٤ وما بعدها

(٢) تطور الاساليب النثرية لانيس المقدسي

باول ، وان يحتاج في الجملة الى ان تضعها في النفس وضعا واحدا وان يكون حالك فيها حال الباني » [1] .

وقد اهتم الشعراء العرب بهذه المميزة وحرصوا على توفيرها في شعرهم وان قصروا ذلك على البيت الواحد . ولعل ابرز صورة لذلك عادة اجازة الشعر وذلك ان يقول احدهم صدر البيت ويطلب من الاخر ان يقول العجز .

واحسن الشعر عندهم ما كان اول البيت فيه يقوده الى آخره لشدة تماسكه وترابطه [2] .

ب : الجزالة : كما حددها ابن الاثير ٦٣٧ هـ/١٢٣٩م « ان يكون الكلام متينا على عذوبة في النغم ولذاذة في السمع » [3] .

والكلام الجزل هو الكلام الذي يتصف بالقوة والجدة فلا يعتوره اسفاف او ركاكة او هلهلة او ابتذال ؛ وهو من جهة ثانية ، يجمع الى ذلك فخامة الايقاع وجلال السياق .

ان شعر المتنبي ٣٥٤هـ يمتاز بجزالته بينما شعر ابن الرومي ٢٨٣هـ قد حرم من هذه الميزة .

ج ــ الايجاز : لطالما شدد البلاغيون على الايجاز في تعريفهم للبلاغة. والايجاز هو العبارة عن الغرض باقل ما يمكن من الحروف .[4] ويقوم بالاستغناء عن كل لفظة لا تزيد في وضوح المعنى ، وايثار التلميح على التصريح والقبض على البسط . كقول الفرزدق :

ان الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه اعز واطول

ومنه ايجاز القصر مثل « ولكم في القصاص حياة » .

وايجاز الحذف مثل : وقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا

---

(١) دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٧٣

(٢) الموازنة ص ٢٤٠ خير الكلام ما يأخذ بعضه برقاب بعض اذا انشدت صدر البيت علمت ما ياتي في عجزه

(٣) المثل السائر لابن الاثير ص ١٠٠

(٤) العمدة ص ٢٥٠ جزء ١ .

عشرة عينا • وضد الايجاز الاطناب وهو يستحسن اذا كان يفيد التعظيم او التأكد او اجلال التعبير او ذكر الخاص بعـد العام او الايغال او التتميم او الاعتراض والاسهاب • ولكنه يمقت اذا غدا حشوا او تطويلا •

د ـ القصر او الحصر هو تخصيص شيء باخر مثـل ما انـت الا انسان ـ فانت مقصور وانسان مقصور عليه • وفي القصر قوة لانه يفيد الاصرار والتوكيد •[1] •

(١) انظر مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٥٠ و ١٥٦

الجمال

اختلف الناس في شأن الجمال اختلافا شديدا ، فتعددت آراؤهم في ماهيته وسببه وغايته ، واحتشدت لدرسه الفلسفة والعلوم والاداب • ونستطيع ان نتبين اتجاهين في فهمه : الاتجاه الذاتي والاتجاه الموضوعي•

الاتجاه الذاتي .

يذهب الى ان الجمال يقوم فينا لا في الاشياء • ذلك ان الاشياء اذا انفصلت عن الانسان لا يعود لها معنى • ويقول افلوطين ــ بهذا الصدد : « يجب ان تصبح العين معادلة ومشابهة للشيء المرئي كيما يمكن استخدامها في تامله ولن ترى عين الشمس دون ان تصير مشابهة لها ، ولن ترى نفس الجميل دون ان تكون جميلة ولا قيمة للنور اذا كان كل الناس عميانا » • ويرى افلوطين ان الجمال المطلق هو الله • فالله هو الخير والخير جميل . وقد شعت ذات الآلة فتغلغلت أشعته في الاشياء فاكتسبت من صفته أي الجمال بقدر ما تنال منه • ومن ثم تبدو الاشياء في سلم هابط من الجمال الى القبح • والانسان يقف في اعلى سلم الكائنات اقترابا من الله وبهذا يصبح اجمل الكائنات من جهة ، ومن جهة ثانية يملك الاداة التي بها يدرك الجمال الاوهي الروح ، وهذه الروح تستطيع ادراك الجمال لانها من مصدر الجمال ــ الله • فاذا نقل شيئا من هذه كان عمله الاساسي هو ان يقرب به ما امكن من ذلك الجمال المطلق الذي ادركه من قبل بروحه ••• ولهذا السبب ينبغي للفنان الا ينقل الطبيعة نقلا رديئا • بل عليه ان يكمل النقص ويرقى بها الى الجمال المطلق •••• والذي يساعد على كشف الروح للاشعاعات الجمالية في الاشياء هو موافقة هذه الاشياء لها ومن ثم « فالقبح ما يصدمنا لانه نقضينا • والشبه الذي بين الاشياء وبين ارواحنا التي تدركها له اصله في الفكرة التي تصدر عنها هذه وتلك جميعا • وليس الجمال في التناسق كما يزعم ارسطو ٣٣٢ ق•م لان الوجه الواحد يبدو تارة جميلا

وتارة قبيحا وانما الجمال في الروح . [1]

ونظرية افلوطين هذه لا تبعد كثيرا عن نظرية افلاطون الذي يرى ان ثمة مثالا اعلى للجمال هو الجمال المطلق . وان الاشياء الجميلة هي اشباه له وكلما ازدادت جمالا ازداد قربها من مثالها الاعلى ، وان روح الانسان قبل ان تهبط من السماء رأت مثال الجمال المطلق ولذلك تستطيع ان تدرك شبهه بفعل التذكر .. والفنان في عملية الابداع يقلد الاشياء ويضيف اليها شيئا من ذاته ليقربها من مثالها ــ ان مصدر الجمال هو الخير المطلق الذي يمنح الاشياء المحسوسة وجودها وجمالها ؛ ونحن لا نستطيع ادراك هذه الاشياء وجمالها الا بالنسبة لمصدرها : « انظر الاشياء الجميلة . عبثا نحاول تفسير جمالها ، او بكلمة اخرى ، اثبات وجودها كاشياء جميلة ، بواسطة اعتبارات او مقاييس حية كأن نشير الى بهاء الوانها او تساوق اشكالها ،كل هذه البراهين لا تجدي نفعا سوى انها تستر الحقيقة وهي أن هذه الاشياء الجميلة هي جميلة لانها تمت بصلة الى الفكرة التي كوناها عن مثال الجمال » [2] .

وجاء التجريبيون ليقولوا ان الجمال ليس سوى احساس مرض ، ومصدر هذا الاحساس موافقة الشيء لرغباتنا . فرغباتنا اذن هي التي نميز بين الجميل والقبيح ، وهي التي تخلع على الشيء صفة الجمال. ويوضح جريف وجهة نظر الذاتيين الذين ينكرون ان تكون الصفة الجمالية خاصة موضوعية ، انهم يشرحون هذه الموضوعية الظاهرة للخاصية الجمالية بقولهم : « اننا نخلع مشاعرنا الجمالية غير واعين على الشيء وبهذا ننسب اليه صفة يفقدها فقدانا تاما . ولكن تذهب الذاتية الى ان لبعض الاشياء استعدادا بسبب هذا الخلع اكثر من غيرها وان بعض الاشياء المفضلة جماليا مردها الى طريقة الشخص الخاصة في الشعور وان بعضها يكون عاما وبعضها واسع الانتشار . ولكن هذه الحقيقة تشرح تحت عناوين الاختلافات الذوقية والعادات الاجتماعية والمأثور الحضاري ولكنها لا تشرح تحت عناوين وجود صفة جمالية في الاشياء

(١) افلوطين : التاسوعة الخامسة
(٢) فيدون PHEDON لافلاطون

المختلفة » . [1]

ما هي خصائص الشيء الجميل في نظر الذاتيين ؟ انها المنفعة والاخلاق والاصلاح والرضا النفسي .

١ ـ الجميل هو النافع

النافع هو ما يسد حاجتنا ويستجيب لرغبتنا ويوافق غايتنا . والانسان كله حاجات ورغبات وغايات ، ولهذا فهو يؤثر الاشياء النافعة وينفر من المضرة . وما الشعور الجمالي الا هذا محبة للجميل ونفور من القبيح .

وليس ثمة من تعارض بين الجميل والنافع لان الشيء الجميل هو الذي تنتظم اجزاؤه وتتناسق لتأدية غرضه وهذه هي صفة الشيء النافع . فالبيت لا يكون جميلا الا اذا انتظمت اجزاؤه بحيث تتفق مع الغرض منه اي : صلاحه للسكن . ويقول هوم : « تبدو القلعة القوطية القديمة التي ليس لها جمال في ذاتها جميلة اذ نظر اليها من حيث صلاحيتها للدفاع ضد العدو . ان الانتظام الذي هو شرط الجمال انما كان ضروريا ليرضي العقل وكل ما يرضي العقل ترضاه العاطفة وهكذا وجب ان يكون الجميل نافعا » .

ويرد الموضوعيون على هذا الرأي بانه ليس من اللازم ان يكون النافع جميلا والجميل نافعا، فثمة اشياء مضرة اجمل بكثير من اخرى نافعة. فالنمر مضر غير انه اجمل من الخنزير النافع، والازهار الجميلة اقل نفعا من الادوات التي ننتفع بها في اعمالنا .

ان الشيء اذا صار نافعا يذهب جماله . يقول سبنسر : « ان السعي الى تحقيق غاية من الغايات المفيدة للحياة يجعلنا نغفل الصفة الجمالية في هذه الغاية. وما دامت النفس منصرفة بتمامها الى تحقيق مصالح من شأنها الابقاء على الحياة فلا يمكن ان تكون موئلا لاية عاطفة جمالية » [2] .

وفي الادب خاصة يذهب الذاتيون الى ان الهدف من هذا الفن هو

---

(١) الاسس الجمالية في النقد العربي لعز الدين اسماعيل ص ٧٠ .
(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة لجوير ترجمة سامي الدروبي ص ٣

تعليم الحكمة • بينما يضحك الموضوعيون من هذه النظرية ويقولون انه لا يمكن ان نجد للفن غاية لاننا بذلك نلزمه بموضوعات محدودة ونضيق دائـــرة عمله •

ب ـ الجميل هو الخير

لقد جعل افلوطين الخير مصدر الجمال • وذكر افلاطون ان الجميل هو المساعد الذي يقود الى الخير ، ويذهب كثيرون الى ان الجمال والخير لا يمكن انفصالهما ، فثمة شعور بالوحدة بين الشعور الفني والشعور الاخلاقي في ارفع درجاته ، وان ارفع انفعال فني هو الاكبار الاخلاقي •

وغاية الفن اذن هي الحض على الفضيلة والارشاد الى الخير والنهي عن الشر وتصحيح السلوك وتهذيبه •

وقد اعترض الواقعيون على هذه النظرية بانه من الخطأ ان نفرض الخير في الجميل لسببيـــن :

١ ــ ان الخير ينتج عن فعل ارادي بينما الجمال لا ينتج عن فعـــل ارادي في الفن •

٢ ــ ان ما يعنى به في الخير هو الغاية الواجب تحقيقها اما في الجمال فالنشاط الذي يحقق الغاية (سبنسر) •

ج ـ الجميل هو الصالح

ان الفن الجميل لا بد ان يؤدي وظيفة اجتماعية تقوم بتنمية المشاركة الوجدانية الاجتماعية ، وتصوير البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واقتراح سبل النهوض والتقدم وحل المشكلات • ويعتبر جويو ١٨٣٧ م ممثلا لهذه النظرية : [١] نظرية الالتزام ،ويأخذ بها اتباع الفلسفةالماركسية•

د ـ الجميل هو المرضي

ان الشيء الجميل هو ما ترتاح اليه نفسنا وما نشعر ازاءه بنشوة روحية لذيذة وبرعشة عصبية ممتعة • وهو بالتالي « صدى لمشاعرنـــا

(١) راجع مسائل فلسفة الفن المعاصرة لجويو ترجمة سامي الدروبي

الخاصة او صدى للشعور الذي اودعه الفنان عمله الفني وتتيجة للعلاقة بين مشاعرنا الخاصة وشعوره. ويكون الشيء جميلا اذا اثر في النفس شعورا معينا بفعل تداعي الافكار او بفعل المشاركة الوجدانية او بفعل الاتحاد الفني [1] .

الاتجـــاه الموضوعي

يذهب الى ان الاشياء تكون جميلة او قبيحة بحد ذاتها وبالاستقلال عنا وعن رغباتنا . واذا كان الشيء جميلا ، ثم وجدنا اشخاصا لا يرون فيه جمالا ، فليس السبب في ذلك انه غير جميل وانما السبب هو انهم لم يدركوا صفات الجمال في الشيء . فادراك الجمال يحتاج الى عقل جمالي ؛ ومن بين هؤلاء أرسطو وكانت وجرين وسبنسر وغيرهم .

اما عناصر هذا الجمال الموضوعي المتمثل في الاشياء ، فقد وصفها ارسطو عندما قال : « ان النظام والتناسق والتحدد هي الخصائص الجوهرية التي يتألف منها الجمال » . وكل هذا نجده في الشكل .ويمكن أن يعرف الجمال حسب هذا المفهوم بانه : « وحدة في تنوع » وتخضع عناصره الى قانونين هما : الايقاع والعلاقات .

والايقاع هو تنظيم متوال لعناصر متغيرة كيفيا في خط واحد بصرف النظر عن اختلافها الصوتي ويشمل النظام والتغير والتساوي والتوازن والتلازم والتكرار[2] .

اما العلاقات فتعني تشابك الاجزاء وارتباطها فيما بينها وهذا يفرض وجود اجزاء عدة ومفردات عدة وان الجزء وحده او المفردة وحدها تكتسب جمالها من علاقاتها بما قبلها وما بعدها .

وباعتبار الجمال وحدة في تنوع يقول توفيق الحكيم : الجمال هو جمع اشتات متشابهة لا كل التشابه مختلفة لا كل الاختلاف . ويقول العقاد : الجمال هو الحرية ولكن ليس بالحرية التي لا يمازجها نظام ولا يحيط بها قانون .

---

(١) راجع الاسس الجمالية في النقد العربي ص ١٠٥

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٠

ويرى الموضوعيون ان الجمال يتمثل في خمسة امور يقتضيها كونه وحدة في تنوع هي :

١ ــ توافق الاجزاء : اي ائتلاف المعنى مع المبنى فاللفظ القوي للمعنى القوي والضعيف للضعيف •

٢ ــ التناسب : التناسب بين المقدمة والجسم والنهاية •

٣ ــ التوازن : مثل تقابل التفاعيل في صدر البيت وعجزه في الشعر ومثل الترصيع والسجع في النثر •

٤ ــ التدرج : الذهاب من اضعف الى اقوى وبالعكس مثل تطور الاحداث من مقدمة الى ازمة الى حل في القصة مثلا •

٥ ــ التكرار : مثل القافية في الشعر ورد الاعجاز على الصدور في النثر[1] •

الجمال عند العرب

اما العرب فلم ينظموا نظرية او اكثر للجمال على الشكل الذي نجده عند الغربيين ، وانما نجد عندهم آراء مبعثرة هنا وهناك في كتب النقد ، تشير الى معظم القضايا التي عرضنا لها في دراسة الجمال •

والاشياء الطبيعية الجميلة في نظرهم هي في الغالب تلك التي ترضي حواسهم وان كانوا لم يحفلوا كثيرا بجمال الطبيعة • وقد اهتموا كثيرا بجمال المرأة فتغنوا بها في شعرهم ووصفوها وصفا حسيا •

والذي يبرهن على نظرتهم الموضوعية للجمال والفن هو ما دعاه الغربيون « الاربسك » •

ونجد الغزالي ٥٠٢ هـ يجمع بين النظرتين الموضوعية والذاتية للجمال فالحواس بنظره اداة للادراك الجمالي ولكن القلب والعقل اعظم ادراكا يقول : « ان الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة واقتران البياض بالحمرة •• وانما نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول ثوب حسن ، وهذا اناء حسن ،

---

(١) النقد الجمالي لروز غريب

فاي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الاشياء ان لم يكن الحسن في الصورة ؟ ... ان القلب اشد ادراكا من العين ، وجمال المعاني المدركة بالعقل اعظم من جمال الصورة الظاهرة للابصار » [1] .

اما ابو حيان التوحيدي فيجعل خمسة عناصر تشترك في تكوين الشي الجميل يقول : « ومناشىء الحسن والتقبيح كثيرة : منها طبيعي ومنها بالعادة ومنها بالشرع ومنها بالعقل ومنها بالمشورة[2] .. وهو يقول كافلوطين ان جمال الفن ارقى من جمال الطبيعة .

اما النقاد فقد انقسموا الى فئة الذاتيين الذين يرون الجمال في المعاني والصور والمشاعر وفئة الموضوعيين الذين يهتمون بالشكل او الاخراج دون النظر الى الغاية من الادب . وقد اشار الامدي ٣٧١هـ/٩٨٩م الى الفئتين حيث يقول : « وجدت اهل البصرة من اصحاب البحتري ومن يقوم مطبوع الشعر دون متكلفه لا يدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ورقيقها والابداع والاغراب منها والاستنباط لها .. وان اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بالفاظه على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس . واذا كان هكذا فقد سلموا له الشيء الذي هو ضالة الشعراء وطلبتهم وهو لطيف المعاني . ووجدت اكثر اصحاب ابي تمام لا يدفعون البحتري عن حلو اللفظ وجودة الوصف وحسن الديباجة وكثرة الماء ، فانه اقرب ماخذا واسلم طريقا من ابي تمام ، ويحكمون مع هذا ان ابا تمام اشعر منه .. ويقولون : فاذا اتفق مع هذا معنى لطيف او حكمه غريبة او ادب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام ، واذا لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه . ويقولون : الشاعر الذي يأتي بحكمة يونان او الهند مع سيء اللفظ حكيم او فيلسوف وليس بشاعر .. ولا يطالب الشاعر بان يكون قوله صدقا ، ولا ان يوقعه موقع الانتفاع به لانه قد يقصد الى ان

---

(١) راجع الاسس الجمالية في النقد العربي ص ١٣٦ عن احياء علوم الدين للغزالي

(١) راجع الاسس الجمالية في النقد العربي ص ١٣٨

يوقعه موقع الضرر » . [1] .

اما مذهبه في النقد فيقيمه على « ذكر مطلوبيهما (البحتري ٢٨٤هـ وأبي تمام ٢٣٢هـ) في سرقة معاني الناس وانتحالهما وغلطهما في المعاني والالفاظ واساءة من اساء منهما في الطباق والتجنيس والاستعارة ورداءة النظم واضطراب الوزن » [2] .

ومعظم النقاد كالامدي لا يقيمون وزنا لغاية نفعية او تعليمية او اخلاقية يقول الجرجاني ٣٩٢ هـ / ١٠٠١م : فلو كانت الديانة عارا على الشعر لوجب ان يمحى اسم ابي نواس ١٩٨هـ من الدواوين ويحذف ذكره اذا عدت الطبقات وكان أولاهم بذلك اهل الجاهلية ومن تشهد الالة عليه بالكفر ...

هذا من جهة الدين ومن جهة الاخلاق يقول الاصمعي٢١٤ هـ : الشعر نكد بابه الشر فاذا ادخل في الخير لان وضعف ؛ وتحكم سكينة بنت الحسين لعمر بن ابي ربيعة ٩٣ هـ ضد جرير في الغزل لانه أمهر وامجن فالاخلاق منافية للفن في عرفهم . اما رجال الفقه والدين والعامة من اصحاب الذوق العام فانهم كانوا على العكس يتطلبون غاية دينية واخلاقية في الشعر . سئل عمر بن الخطاب عن اشعر الناس فقال : صاحب من ومن ومن .. يعني زهير بن ابي سلمى .

اما التزام الشعر للحق والحقيقة فلم يكن شرطا لجماله وبهذا لا يتقيد الادب بغاية تعليمية « واحسن الشعر اكذبه » حكم يكاد يكون عاما . والشعراء كذابون وهذا لا يضير الشعر في شيء اذ ان مهمة الشاعر ليست قول الحق فتلك مهمة الحكماء والفلاسفة وانما همه ان يحسن القول . يقول قدامه بن جعفر : « ولا يستحسن السرف والكذب والاحالة في شيء من فنون القول الا في الشعر » [3]

واذا كان العرب قد نظروا الى الجمال نظرة موضوعية فما هي

---

(١) الموازنة ص ٣٥٠ وما بعدها .
(٢) الموازنة ص ٣٤٩
(٣) نقد النثر ص ٩٠

عناصر الجمال التي وجدوها في ادبهم ؟ انها ثلاثة : جمال اللفظة وجمال الجملة وجمال المعنى •

١ ـ جمال اللفظة :

اللفظة تحتوي على معنى وصوت • والمعنى لا يوصف بالجمال او القبح وانما الصوت هو الذي يكون جميلا او قبيحا • اما صفات اللفظ الجميل فهي •

آ ـ عدم ترديد الحروف ولا سيما الثقيلة اللفظ مثل قول احد النحويين وقد اجتمع عليه الناس : ما لكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على رجل ذي جنة افرنقعوا عني •

ب ـ عدم تقارب الحروف أو تنافرها مثل الضاد والذال والظاء ومثل الزاي والسين والشين ومثل الحاء والعين والهاء كقولنا : هرع ـ استنزر ـ ضبط [١] •

ج ـ عدم استعمال الكلمات الطويلة مثل : المستبسلات ـ القسطنطينية : ويرى السيوطي ان الكلمة المتوسطة المؤلفة من ثلاثة احرف احسن من الثنائي والاحادي والرباعي والخماسي • [٢]

د ـ نبذ الكلمات الكريهة اللفظ مثل حوب بعاق • قال ابن الاثير ٦٣٧هـ/١٢٣٩م : ان الالفاظ داخلة في حيز الاصوات فالذي يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح • الا ترى ان السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور يميل اليهما ويكره صوت الغراب وينفر منه ؟ وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس • والالفاظ جارية هذا المجرى فانه لا خلاف في ان لفظة المزنة أو الديمة حسنة يستلذها السمع ، وان

---

(١) يرى السيوطي انه في التأليف يوجد ثلاثة اضرب :
١ ـ حروف متباعدة حسنة .
٢ ـ حروف متقاربة خفيفة اقل حسنا ،
٣ ـ حروف متقاربة كريهة .
(٢) المزهر ص ١٩٩ .

لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهي تدل على معنى واحد .. والذي يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت ياتلف من مخارج الحروف .[1] .

٢ ـ جمال الجمل

لقد عد قدامة بن جعفر ٣٣٧هـ/٩٤٩م اوجه الجمال في مقدمة كتابه جواهر الالفاظ حيث قال : « واحسن البلاغة الترصيع والسجع واتساق البناء واعتدال الوزن واشتقاق لفظ من لفظ وعكس ما نظم من بناء وتلخيص العبارة بالفاظ مستعارة وايراد الاقسام موفورة التمام ،وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة وصحة التقسيم واتصاف المنظوم وتلخيص الاوصاف بنفي الخلاف والمبالغة في الوصف بتكرير الوصف ، وتكافؤ المعاني في المقابلة والتوازي وارداف اللواحق [2] .. ويتحقق جمال الجمل بالتوازن والتساوي والتوازي والتكرار وغيرها

١ ــ التوازن : هو ان تكون الكلمتان الاخيرتان في جملتين متتاليتين على وزن واحد مع اختلاف الحرف الاخير مثل : السماء الزرقاء تظلل الاكوان .

٢ ــ السجع : هو تواطؤ الفاصلتين او الفواصل على حرف واحد نحو : والرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما تحت الثرى .

٣ ــ التوازي : هو اجتماع السجع مع التوازن البسيط اي اتفاق الفاصلتين في حرف السجع والوزن معا نحو : ان الله لعن الكافرين واعد لهم سعيرا خالدين فيها ابدا لا يجدون وليا ولا نصيرا .[3] .

٤ ــ التساوي : هو تساوي الاجزاء يعني ان تكون كل لفظة من الفاظ الجملة الاولى مساوية لكل لفظة من الفاظ الجملة الثانية في الوزن والقافية ، فهي سجع مع تواز ويسمى ايضا الترصيع نحو : يطبع الاسجاع

---

(١) المثل السائر مقدمة الفصل الثامن .
(٢) جواهر الالفاظ ص ٣
(٣) راجع جواهر الالفاظ لقدامة بن جعفر .

بجواهر لفظه ، ويقرع الاسماع بزواجر وعظه •

٥ ــ التسميط : هو ان يتعدد التساوي في البيت الواحد سواء جاء مجانسا للقافية او غير مجانس لها نحو قول صفي الدين الحلي •

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

او قول ابي صخر الهذلي :

وتلك هيكلة خود مبتلة صفراء رعبلة في منصب سنم

٦ ــ التشطير : هو ان يكون كل شطر من البيت مختلف التسجيع عن الاخر مثل قول ابي تمام :

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتهب •

٧ ــ الجناس : توافق اللفظتين في النطق واختلافهما بالمعنى : نحو ويوم الساعة لا يبقون غير ساعة • وهو على قسمين : تام وناقص • ومن التام المتوج والمذيل والمجنب والمتكافىء والمضارع والمقلوب والمصحف والمشتق والمطلق والتحليلي الخ •••

٨ ــ التكرار : منه التوكيد نحو انت انت الله ، ومنه ترديد تفاعيل الشعر وتكرير المقاطع •

٣ ـ جمال المعاني

تكون المعاني جميلة اذا كانت جديدة او معبرا عنها تعبيرا لبقا ويكون ذلك بالاشكال التالية : ــ

أ ــ في الطباق او المقابلة او تنافر الاضداد وذلك ان يجمع في الكلام بين الشيء وضده نحو : ابيض واسود ، صغير وكبير ــ كقول ابي العتاهية :

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا واقبح الكفر والافلاس في الرجل

ب ــ رد الاعجاز على الصدور مثل : وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا .

ج ــ الانعكاس او القلب نحو : والله يخرج الميت من الحي والحي من الميت .

د ــ التجريد نحو قول المتنبي ٣٥٤هـ

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا

هـ ــ التورية : هي ان تذكر لفظا له معنيان احدهما قريب والآخر بعيد فتريد البعيد منهما وتورى عنه بالقريب نحو :

فقالت رح بربك من امامي فقلت لها بربك انت روحي

و ــ حسن التعليل : وذلك ان يتخيل الاديب علة غير علة الشيء المعروفة : كقول المتنبي :

ما به قتل اعاديه ولكن يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب

ز ــ تأكيد المدح بما يشبه الذم او عكسه او نفي الشيء بايجابه وعكسه نحو :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ح ــ المبالغة نحو قول عنترة : ٦١٥م .

وانا المنية في المواطن كلها والطعن مني سابق الاجال

ط ــ التلميح : هو ان يقول لك شيئا يذكرك بآخر نحو : لا تكن ابله تذكر مصير الغراب .

ي ــ التدرج : يكون هابطا او صاعدا نحو :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فوعد فلقاء

ك ــ الرصف : تجزئة الكل إلى اجزاء تأتي بها متتالية نحو : ويقتلون الاخت والاخ والابن والاب •

ل ــ تجاهل العارف : ان تطرح سؤالا لا لتلقى جوابا بل لتفحم الخصم نحو : هل سمعت النداء هل استجبت للاستغاثة هل فهمت واجبك هل قمت به ؟

م ــ التعجب : ما اجمل السماء !

الجمال الطبيعي • او دلالة اللفظ على المعنى •

ان بعض الالفاظ تعكس معناها انعكاسا جميلا ومرجع هذه الظاهرة الى اصل اللغة وتكوينها من حيث انها تكونت من محاكاة الانسان للاصوات الطبيعية ، خرير الماء ــ قهقهة الانسان ــ زقزقة العصفور

ولاحظ بعضهم ان ثمة اصواتا تعبر عن حالات معينة دون غيرها او تتلاءم مع المعنى الذي تعبر عنه مثل قول المتنبي في وصف قلعة الحدث :

بناها فاعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

فالقافات لها وقع كوقع ارتطام الرماح •

او كقول سعيد عقل :

افق لبنان ضيق وامانيه رحاب مدى اتساع الضمير

فالقافات والضاد في الصدر توحيان بالضيق بينما المدات في العجز توحي بالاتساع :

او كقول البحتري يصف الذئب :

يقضقض عصلا في اسرتها الردى كقضقضة المقرور ارعده البرد

فتوالي القافات والصاد والسين يذكرنا باصطكاك اسنان الذئب وثمة حروف قاسية وشديدة مثل ق ــ ض ــ ج ــ ط ــ ك •

وحروف لينة : مثل س ــ ل ــ ه •

.....

(١) المزهر للسيوطي ج١ ــ ص ٤

وفي هذا المعنى قال ابن الاثير ٦٣٧هـ/١٢٣٩م : ومع هذا فاعلم ان الالفاظ تجري في السمع مجرى الاشخاص مع البصر ،فالالفاظ الجزلة تتخيل في السمع كاشخاص عليها مهابة ووقار ،والالفاظ الرقيقة تتخيل كاشخاص ذوي دماثة ولين اخلاق ولطافة مزاج[1] .

(١) المثل السائر المقالة الاولى القسم الاول .

العوامل المؤثرة في الأسلوب

اختلاف الاســـاليب

مما لا شك فيه اننا لا نجد اسلوبا واحدا بل عددا لا يحصى مــن الاساليب • فلكل موضوع اسلوبه الخاص ولكل اديب اسلوبه الخاص • للمسرحية اسلوبها الذي يختلف عن اساليب الملحمة والقصــة والخطابة الخ ••• وللجاحظ ٢٥٥ هـ اسلوب غير اسلوب ابن المقفع ١٤٣هـ وعبد الحميد الكاتب ١٣٢ هـ والهذاني ٣٩٨هـ ••• الخ •

فما سبب تعدد الاساليب ؟ ثمة سببان هما : شخصيــة الاديب ، وموضوع الكتابة •

١ شخصية الأديب

قال بوفون « الاسلوب هو الرجل » يعني بذلك ان الكتابة الفنية تعكس شخصية الكاتب • فهي اشبه بمرآة تبدو فيها صورة الاديــب وملامحه الخاصة ، وبما ان الاشخاص يتباينون فيما بينهم في الخلــق والخلق والملكات العقلية والعاطفية والخيالية ، كان من الطبيعي ان تختلف اساليبهم الكتابية التي تصدر عنهم وتعبر عن شخصياتهم •

وشخصية الاديب تنحل الى صفات عقلية وصفات عاطفية وصفات جسمية •

اما الصفات العقلية فتشمل نظرته الى الحياة او فلسفته في الوجود ، هل هو متشائم او متفائل ؟ مؤمن أو كافر ؟ واقعي أو مثالي ؟ وهي تشتمل ايضا على ثقافة الاديب ومدى عمقها واتساعها • وعلى هذا يمكننا ان نقول ان أدب ابي العلاء ٤٤٩هـ يصطبغ بالتشاؤم ، بعكس شعر ايليا ابي ماضي ١٨٥٩م الضاحك للحياة • وادب الجاحظ ٢٥٥ هـ يزخر بمعــارف واسعة بينما ادب المنفلوطي ضعيف التفكير •

والصفات العاطفية تبدو في رقة المشاعر او خشونتها ، في القناعة أوالطموح ، في التواضع او الكبرياء ، في المحافظة او التحرر ، وعلى هذا نلقى الرقة في شعر ابي فراس الحمداني ٣٥٧هـ وعمر بن ابي ربيعه ٩٣ هـ بينما تظهر الخشونة في شعر ابن هاني والشنفرى وابي تمام ؛ وبينما تنطلق القوة من شعر المتنبي والشريف الرضى كبرياء وانفة ، تبدو الركاكة والهلهلة في شعر ابن الرومي وابي العتاهية الخ ...

وللتكوين الجسمي اثر في الاسلوب ايضا . فالاديب المعتل الجسم يشيع الحزن في ادبه ، والاديب الاعمى تضعف مقدرته على الوصف وينمو حسه النقدي ... « الشعراء بالطبع مختلفون فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء - فاختلاف الطباع يؤدي الى اختلاف الاساليب - ومنهم من تسهل عليه المراثي ويتعذر عليه الغزل »[1]

بيد ان شخصية الاديب تتأثر بالبيئة والجنس والثقافة والدين والطبع وهذه التأثيرات تظهر في الادب وتعمل على اختلاف الاساليب بحسب المكان والزمان والعنصر والقيم الدينية والاجتماعية السائدة .

١ ــ البيئة : وهي الوسط الطبيعي والوسط الاجتماعي حيث يحيا الاديب ، والبيئة الطبيعية تتمثل بمناخ البلاد وطبيعة ارضها وموقعها الجغرافي وما فيها من نبات وحيوان . وهذه البيئة الطبيعية تنهج لساكنيها سنن معاشهم وتكون الكثير الغالب من اخلاقهم وطباعهم ، ومناظرها هي التي تنمي ذوق ابنائهم وتغذى خيال كتابها وشعرائها . فالشعر الجاهلي مثلا صورة صادقة لطبيعة البادية وحياة البدو ، فالفاظه خشنة كالجمل ومعانيه وحشية كالاوابد واساليبه متشابهة كالصخر واخيلته مجدبة كالقفر .[2]

ولما انتقل العرب الى الحواضر في العصر الاموي والعباسي والحديث تغير الاسلوب الادبي ، فخصب الفكر واتسع افق الخيال وتدفقت العاطفة

(١) الشعر والشعراء ص ٣٣ . لابن قتيبة .

(٢) احمد حسن الزيات في اصول الادب ص ١٨ وانظر الوساطة للجرجاني ص ١٢ .

ورقت الالفاظ وسهلت • ولعلنا نذكر قصة ذلك البدوي الذي وفد على امير حاضرة فمدحه قائـلا :

انـت كالدلو لا عدمناك دلوا من كثيـر العطايا قليل الذنوب

انت كالكلب في حفاظـك للـود وكالتيـس في قراع الخطـوب

فهم بعض اعوان الامير بقتله فقال الامير : خل عنك فذلك ما وصل اليه علمه ، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنا وقد لا نعدم منه شاعرا مجيدا • فما اقام بضع سنين في سعة وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق ونسبت اليه هذه الابيات •

يا من حوى ورد الرياض بخده وحكى قضيب الخيزران بقده

دع عنك ذا السيف الذي جردته عينـاك امضى من مضارب حده

اما البيئة الاجتماعية فتبدو في اشتراك ادباء العصر الواحد فـي صفات مشتركة ومن هنا كان تقسيم الادب الى اعصر تاريخية فعصـر جاهلي وعصر اموي وعصر عباسي وعصر انحطاط وعصر نهضة الخ ••

٢ ــ الدين : قوام الحياة الروحية ، وقد لعب الدين دورا عظيمـا في نشأة الفنون الادبية وتطورها • فالمسرح نشأ نشأة دينية عند اليونان، وتدخلت الآلهة في احداث الملاحم والهمت ربات الشعـر الشعراء فـي ابداعهم • وتعتبر مزامير داود والاسفار المقدسة والقرآن من صميم الآداب وعندما جاء الاسلام ونفذ الى قلوب العرب ظهرت النزعات الدينية مـن شيعة وخوارج وسنة ومعتزلة الخ ••• كان لكل منها شعراؤه وخطباؤه ينافحون عن مذاهبهم ويناوئون خصومهم ، فكان الامام علي وقطري بن الفجاءة والحجاج والكميت والجاحظ • « والدين يخلق موضوعات جديدة وهو يؤثر في الاخلاق تاثيرا يتردد صداه في نواحي الادب فكان الشعـر الديني مبدأ كل عمل فني في كل امة • واقدمه اناشيد « رع » عنـد المصريين واناشيد فيدا عند الهنود واناشيد ارفيه عند اليونان وسفـر ايوب عند العرب ، اما اليونان فعددوا الآلهة على صور البشر ونسبـوا اليهـا ما للانسان من غضب وانتقام وحسد الخ ••• واما بنو اسرائيل

فقد وحدوا الله وبراوه ونزهوه وهابوه ... واما المسلمون فالخوارج منهم ينضح ادبهم بالدفاع والحماسة ، والشيعة بالحزن والالم ، والمتصوفة بالمحبة والكنايات والوجد الخ .. [1]

٣ ــ **الجنس** : ان الاديب يتحدر من جنس يحمل خصائص نفسية وجسمية تميزه عن الاجناس الاخرى[2] . والذين انتجوا الادب العربي لم يكونوا كلهم من اصل عربي . فإذا استثنيت شعراء الجاهلية الذين صفت عروبتهم لعدم اختلاط العرب بعناصر اخرى لعزلتهم شبه التامة في جزيرتهم. نجد منذ العصر الاموي حملة لواء الادب العربي ينتمون الى اجناس مختلفة عربية وعجمية وهندية وتركية ويونانية اخضعها العرب في فتوحهم وفرضوا عليها دينهم ولغتهم . ولعل هذا ما دفع بروكلمن (١٩٥٦) في كتابه « تاريخ الآداب العربية» الى اعتماد التقسيم التالي :

ــ الكتاب الاول : الادب العربي القومي :

١ ــ منذ نشوئه حتى ظهور محمد الجاهلية

٢ ــ محمد وعصره صدر الاسلام

٣ ــ عصر بني امية العصر الاموي

ــ الكتاب الثاني : الادب الاسلامي في اللغة العربية

١ ــ العصر الكلاسيكي : ٧٥٠ ــ ١٠٠٠

٢ ــ ما بعد العصر الكلاسيكي : ١٠١٠ ــ ١٢٥٨

ــ الكتاب الثالث : عصر الانحطاط في الادب العربي .

ــ الكتاب الرابع : الادب العربي الحديث .

وفي هذا يقول احمد حسن الزيات : فشعر العرب غير شعر اليونان في المذهب والخيال والعرض ، وشعر ابن الرومي مختلف عن شعر ابن المعتز وقد نشأا في بلد واحد وعصر واحد ، لان الجنس الآري اميل الى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والعمق . والجنس السامي لذكاء قلبه

(١) احمد حسن الزيارت في اصول العرب

(٢) فجر الاسلام ص ٣٠

وحدة خاطره ، يفهم الشيء في لحظة ثم يلخصه في لفظة • فهو اميل الى التعميم والبساطة[1] •

٤ – الثقافـــة

نقصد بها مجموعة المعارف التي يطلع عليها الاديب • وقد كـان الادباء في جميع العصور في طليعة المثقفين • ويذهب بعضهم الى القول ان كلمة « شعر فهو شاعر » اي علم فهو عالم •[2] ولكن هذه الثقافة يتفاوت مقدارها بين اديب وآخر بحسب ما يصيب من ضروب المعرفة ، فقد تقتصر عند بعض الادباء على حضارة قومه او على جزء منها ، بينما تتسع عنـد آخرين لتحيط بحضارات اقوام اخر ، وهذا ما حدث فعلا في العصـر العباسي . فالبحتري ٢٨٤ هـ وابن المعتز والهمذاني ٣٩٨ هـ لم يأخـذوا بالوان الثقافات اليونانية والهندية والعجمية واقتصروا على الثقافة العربية فامتاز ادبهم بالطبع والبساطة وجزالة اللغة وسطحية التفكير • بينمـا اتسعت جوانب ثقافة ابن الرومي ٢٨٣هـ والمتنبي ٣٥٤هـ وابي تمام ٢٣٢هـ والجاحظ ٢٥٥هـ وابن المقفع ١٤٣هـ فاتسم ادبهم بكثرة الافكار وتقصيها وباتساع آفاق الخيال وانفساح مجال القول • ونوع المطالعة يكون ادب الكاتب ويؤثر في اسلوبه شكلا ومعنى ومن ثم كان تاثر الادباء بعضهم ببعض • يقول ابن خلدون ٨٠٨هـ : اعلم ان لعمل الشعر واحكام صناعته شروطا اولها الحفظ من جنسه • (٣)

وقد تكلم احمد امين مفصلا عن اثر الثقافات في الادب العربي ، فهي التي لونته وصبغته باصباغ مختلفة يقول : « كان من اثر اختلاف السكان في المملكة الاسلامية وانتسابهم من حيث اصولهم الى امم مختلفة وامتزاج بعضهم ببعض في السكن والتزاوج وما الى ذلك ودخول كثيـر من افراد الامم الى الاسلام ونمو الحضارة نموا يستدعي علما واسعا بكثير من شؤون الحياة من هندسة وطب ونجوم ونظام حكم وفقه ولغـة

(١) اصول الادب ٣٠.
(٢) نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ص ٧٧ .
(٣) المقدمة ص ٥٢٦ .

وادب ، كان من ذلك كله ان انتشرت في المملكة الاسلامية ثقافات مختلفة لامم مختلفة • وكان هناك رجال بارزون يحملون لكل ثقافة علمها ويبذلون جهدهم في الدعوة لها والترويج لمبادئها وتحبيبها الى الناس وافهامهم انها خير انواع الثقافات • وكان من اثر هذا : ان كل ثقافة اخذت تشق لنفسها جدولا تسير فيه وحدها وكلما غزرت وزاد مددها وسعت مجراها وتعهدته وحافظت الى حد ما على استقلاله •ثم نرى ــ بعد ذلك ــ انهذه الجداول المستقلة تقريبا اخذت تلتقي ويتكون منها نهر عظيم تصب فيه مياه مختلفة ... وقد انتشرت في هذا العصر ثقافات كان لها الاثر الاكبر في عقول الناس واعني بها الثقافة الفارسية والثقافة اليونانية والثقافة الهندية والثقافة العربية [1] • وكان خير ممثل للثقافة الفارسية ابن المقفع ، وللثقافة اليونانية حنين بن اسحق ، وللثقافة العربية المبرد، ولالتقاء الثقافات الجاحظ » • (١)

الادب الصافي

لكن ينبغي ان نعترف اخيرا ان العبقرية قد تضرب عرض الحائط بجميع هذه المؤثرات فتنطلق حرة في اجواء الخلق لتنتج اثرا فنيا لا يحمل صبغة المكان والزمان ولا يدين لمذهب او ثقافة او جنس • وانما هو ابداع كله جدة وكله سحر • وهذا هو الادب الخالص او الصافي •

الاسلوب هو الرجل في حيانه الفكرية .

بيد اننا لا نستطيع دائما ان نلفي الادب شفافا تتراءى لنا فيه صورة صاحبه • فهذا بشار ١٦٧هـ تلك الجثة الضخمة يقول :

ان في بردي جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

وهذا حسان بن ثابت الانصارى ٤٥هـ يفتخر بشجاعته وبلائه بينما كان في حياته جبانا تشهد على ذلك قصته مع الرجل الغريب والمراة في احدى الغزوات • والمتنبي ٣٥٤هـ رفع الكرم الى اسمى المراتب وكان في حياته مقترا • ويمكن ان نعزو ذلك الى ان الاديب لا يكون صادقا فيجميع

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٦٩

ما يكتب بل كثيرا ما يتكلف ويتصنع مدعيا غير ما يشعر ويفكر • ثم ان الاديب اذا وجد في نفسه خلة مذمومة يحاول ان يخفيها فلا تظهر في كتابته • فالاديب يضع في كتابته كثيرا من حياته ولكن ليس كل حياته • انه يضع حياته الفكرية وقسما من حياته الخلقية اما القسم الاخر فيخفيه او يبدل فيه •

٢ ـ الموضوع

موضوع الادب واسع لا حدود له • فكل شيء يصلح ان يكون موضوعا للادب : كل خلجة من خلجات النفس وكل فكرة تخطر في الذهن وكل صورة ترتسم في الخيال اذا عبرنا عنها تعبيرا فنيا تستوى اثرا اديبا رائعا • وكل مظهر من مظاهر الطبيعة الخارجية من نبات او حيوان او جماد او مناظر تكون مادة الادب الثرة • حتى العلوم والفلسفة لم يتورع الادب عن تسخيرها مادة له في ابداع الجمال ••• ولعلّ هذا ما دفع ابن خلدون ٨٠٨هـ/١٤٠٥م الى القول متحدثا عن الادب : هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه او نفيها وانما المقصود منه عند اهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهم •[1] •

بيد انه بالرغم من هذا الاتساع في موضوعات الادب يمكن ان نحصرها في حقلين : الانسان ، الطبيعة •

١ـ الانسان : كل مظاهر حياته الجسمية والعقلية والخلقية •

أ ــ احساساتنا من لذة والم وغرائز متنوعة •

ب ــ عواطفنا الشخصية في تقويمنا للامور وممارستنا الفضائل والرذائل وفي علاقاتنا بغيرنا في الاسرة والقرية والمدينة والمجتمع والوطن والانسانية باسرها ، وفي مثلنا العليا ونظرتنا الى الاديان والله والحقيقة والخير والجمال •

---

(١) المقدمة ص ٤٨٨ .

ج ــ مولدات تفكيرنا من احلام وحدس ومخترعات الخ ...

٢ ــ الطبيعة بما تشتمل عليه من عوالم ارضية وجوية ومن حيوان ونبات ومعادن • فهي تؤثر على حواسنا ونختزن صورها في خيالنا •وتوفر لنا حقلا للاختبار ونلاحظ فيها الظواهر ونرصد المفارقات والمشابهات فتغذي عقلنا وتنميه • [1] •

أهمية الموضوع : من حيث القيمة الفنية لا اهمية للموضوع في الادب وانما الهام هو الاسلوب • بمعنى ان روعة الاثر الادبي لا تتعلق بعظمة الموضوع بقدر ما تتعلق باسلوبه • ان وصف مصرع هزار فيقفص، اذا قدر له عبقرية شاعر مبدع ، تتوافر فيه من معالم السحر والجمال ما لا نعثر عليه في وصف معركة هائلة سقط فيها آلاف القتلى في سبيل الحرية الوطنية ، ولم تتناولها قريحة فياضة تحسن اخراجها وتصويرها •

ولكن للموضوع اهميته من حيث تأثيره في تشكيل الاسلوب • فالاساليب تتنوع بتنوع المواضيع التي تتناولها تبعا للقول المأثور لكل مقام مقال • وقال ابن خلدون متحدثا عن فن الشعر : ولكل واحد من الفنون اساليب تختص به عند اهله لا تصلح للفن الآخر •

فاذا تكلم الاديب عن نفسه مصورا ما يعتلج فيها من مشاعر ينتج ادبا غنائيا •

اما اذا تخلى عن ذاته أو نحاها جانبا ليعرض لنا ما يحيط به من طبيعة خارجية وبشرية ، قاصرا عمله على رصد ما يرى ويسمع وتصويره ، فانه ينتج ادبا قصصيا او مسرحيا او وصفيا •

وقد تكلم ارسطو ٣٣٢ ق•م في كتابه «فن الشعر» عن تنوع الفنون الشعرية وذهب الى ان سبب اختلاف فنون الشعر يرجع الى ثلاثة انحاء هي : اختلاف الوسائل واختلاف الموضوعات واختلاف الاسلوب • وانواع الشعر عنده ثلاثة هي : الملحمة والمأساة والملهاة • ولعله استبعد الفن الغنائي لانه ادخل في فن الموسيقى او لانه لا ينبطق عليه تحديده للشعر بكونه محاكاة . يقول في كتابه « فن الشعر » : « الملحمة والمأساة بل والملهاة والديثرمبوس ، وجل صناعة العزف بالناي والقيثارة هي كلها انواع من

(١) نظرية الفن والانواع الادبية لجان سوبرفيل

المحاكاة في مجموعا لكنها تختلف على انحاء ثلاثة : لانها تحاكي اما بوسائل مختلفة او موضوعات متباينة او باسلوب متباين •

فكما ان بعضها ــ بفضل الصناعة او بفضل العادة ــ يحاكي بالالوان والرسوم كثيرا من الاشياء التي تصورها وبعضها الاخر يحاكي بالصوت• كذلك الحال في الفنون السالفة الذكر كلها تحقق المحاكاة بواسطة الايقاع واللغة والانسجام مجتمعة او تفاريق • فالعزف بالناي مثلا والضرب بالقيثارة وما اشبه هذا من فنون مثل الصفر تحاكي باللجوء الى الايقاع والانسجام ، وحدهما ، بينما الرقص يحاكي بالايقاع دون الانسجام ، وذلك لان الراقصين يستعينون بالايقاعات التي تعبر عنها أشكال الرقص في محاكاة الاخلاق والوجدانات والافعال •

اما الفن الذي يحاكي بواسطة اللغة وحدها ، نثرا وشعرا ــ والشعر مركبا من انواع او نوعا واحدا ــ فليس له اسم حتى يومنا هذا • فليس ثمة اسم مشترك يمكن ان ينطبق بالتواطؤ على تشبيهات سوفرن واكسينرخوس وعلى المحاورات السقراطية او على المحاكيات المنظومة على أوزان ثلاثية او ايليجية او اشباهها • على ان الناس اعتادوا ان يقرنوا بين الاثر الشعري وبين الوزن فيسموا البعض شعراء ايليجيين والبعض الاخر شعراء ملاحم • فاطلاق لفظ الشعراء عليهم ليس لانهم يحاكون بل لانهم يستخدمون نفس الوزن •••

ولما كان المحاكون انما يحاكون افعالا اصحابها هم بالضرورة اما اخيار او اشرار ، لان اختلاف الاخلاق يكاد ينحصر في هاتين الطبقتين ، او تختلف اخلاق الناس جميعا بالفضيلة والرذيلة ، فان الشعراء يحاكون ، اما من هم افضل منا ، او اسوأ او مساوون لنا •• فمن البين اذن ان كل نوع من المحاكيات التي تحدثنا عنها سيطبع بنفس الفوارق ويختلف كما قلنا باختلاف الموضوعات •

وفي الرقص والعزف بالناي والقيثارة قد تقع ايضا هذه الفروق ، وكذلك في النثر والشعر غير المصحوب بالموسيقى ، فهو ميروس مثلا يصور اشخاصه على سيماهم في الواقع ، واقليلون يصورهم كما هم ، وهيجيمون الثانوسي يصورهم اخس مما هم في الواقع •

وهذا الفارق بعينه هو الذي يميز المأساة من الملهاة : فهذه تصور الناس ادنياء وتلك تصورهم اعلى من الواقع .

وبين هذه الفنون فارق ثالث يتوقف على اسلوب المحاكاة للموضوع اذ يمكن بنفس الوسائل ولنفس الموضوعات ، ان نحاكي عن طريق القصص ، اما بان نقص على لسان شخص آخر ، كما يفعل هوميروس او يحكي المرء على نفسه ، او نحاكي الاشخاص وهم يفعلون .

فالمحاكاة كما قلنا منذ البداية تختلف وفقا لهذه الفروق الثلاثة : الوسائل والموضوعات والطريقة[1] . »

وقد تكلم النقاد العرب في موضوع تقسيم الفنون الادبية ولما كان الادب العربي لم يعرف سوى الفن الغنائي لذلك انحصرت جهودهم في تقسيم الشعر الغنائي الى فنونه المختلفة ولم يشيروا الى فني الشعر الآخرين اي الشعر الملحمي والشعر المسرحي .

وقد اطلقوا على فنون الشعر الغنائي اسماء مختلفة تدل على موضوعها واختلفوا ايضا في عددها وتفريعاتها .

ويذكر ابن قتيبة ٢٧٦هـ/٨٨٩م بعض دواعي الشعر التي تحفز الشاعر على النظم فيقول : « وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلف، منها الشراب ومنها الطرب ومنها الطمع ومنها الغضب ومنها الشوق .. وقال عبد الملك لارطأة بن سهية هل تقول اليوم شعرا ؟ قال كيف اقول وانا لا اشرب ولا اطرب ولا اغضب وانما يكون الشعر بواحدة من هذه . ؟ »[2]

ويقول قدامة بن جعفر ٣٣٧هـ/٩٤٩م في باب المعاني الدال عليها الشعر : جماع الوصف لذلك ان يكون المعنى مواجها للغرض المقصود غير عادل عن الامر المطلوب .

---

(١) فن الشعر لارسطو ص ١ وما بعدها ترجمة عبد الرحمن بدوي .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٠ .

ولما كانت اقسام المعاني التي يحتاج فيها الى ان تكون على هذه الصفة مما لا نهاية لعده ولم يمكن ان يؤتى على تعديد جميع ذلك ولا ان يبلغ آخره ، رأيت ان اذكر منه شيئا ينبىء عن نفسه ويكون مثالا لغيره وعبرة لما لم اذكره وان اجعل ذلك في الاعلام من اغراض الشعراء وما هم عليه اكثر حوما وعليه اشد روما وهو المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه .[1]

وقد اورد ابن رشيق القيرواني في عمدته اقوالا كثيرة في الموضوع منها ما يلي : ــ

وقال بعض العلماء بهذا الشأن : بني الشعر على اربعة اركان وهي : المديح والهجاء والنسيب والرثاء .

وقالوا : قواعد الشعر اربع : الرغبة والرهبة والطرب والغضب :فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع .

وقال الرماني علي بن عيسى : اكثر ما تجرى عليه اغراض الشعر خمسة : النسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف .

وقال عبد الكريم : يجمع اصناف الشعر اربعة : المدح والهجاء والحكمة واللهو . ثم يتفرع من كل قسم من ذلك فنون . فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الامثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمخمور .

وقال قوم : الشعر كله نوعان : مدح وهجاء : فالى المدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب ومما تعلق بذلك من محمود الوصف كصفات المطلوب والآثار والتشبيهات والحسان ، وكذلك تحسين الاخلاق كالامثال

---

(١) نقد الشعر ص ٤٢

والحكم والمواعظ والزهد في الدنيا والقناعة • والهجاء ضد ذلك كله • غير ان العتاب حال بين حالين ،فهو طرف لكل واحد منهما •وكذلك الاغراء ليس بمدح ولا هجاء لانك لا تغرى بانسان فتقول : انه حقير ولا ذليل الا كان عليك وعلى المغرى الدرك، ولا تقصد ايضا بمدحه الثناء عليه فيكون ذلك على وجهه •

وقال دعبل : من اراد المديح فبالرغة ومن اراد الهجاء فبالغضاء ومن اراد التشبيب فبالشوق والعشق ومن اراد المعاتبة فبالاستبطاء •[1] •

نلاحظ من كل هذه الاقوال ان النقاد العرب القدماء بالرغم من اختلافهم في تقسيم الفنون الشعرية الوجدانية ،يكادون يتفقون في مبدأ التقسيم وهو اعتماد العاطفة التي تدفع الشاعر على قول الشعر او التي يثيرها الشعر في القارىء • فالنفس البشرية لا تبقى دائما في حالة وجدانية واحدة وانما تنتابها حالات شتى من حزن وفرح وحب وبغض وهدوء الخ ••• وكما تختلف مظاهر هذه الانفعالات في تعبيراتها الجسيمة هكذا يختلف التعبير عنها ادبيا • فالغضب ينتج عنه الهجاء ، والحزن ينتج عنه الرثاء ، والحب ينتج عنه النسيب ، والانفة ينتج عنها الفخر ، والطرب ينتج عنه الخمريات واللهو ووصف مجالس الطرب والغناء الخ •• وتبعا للعاطفة يكون اسلوب الحماسة قويا ، واسلوب النسيب رقيقا ، واسلوب الوصف جميلا الخ •••

---

(١) العمدة ص ١٢٥ ج ١ •

أهم أساليب الادب ـ الشعر والنثر

ينقسم الادب الى قسمين كبيرين : هما الشعر والنثر • وكل منهما يتفرع الى فروع كثيرة تدعى فنونا • اما فنون الشعر فهي : الشعر الملحمي والشعر التمثيلي والشعر الغنائي والشعر التعليمي • واما فنون النثر فهي : القصة والخطابة والمقامة والمقالة والامثال والرحلات الخ••

فما الشعر وما النثر وما الفرق بينهما ؟

يقول ابن خلدون ٨٠٨هـ/١٤٠٥م : « اعلم ان لسان العرب وكلامهم على فنين : في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون اوزانه كلها على روي واحد وهو القافية • وفي النثر وهو الكلام غير الموزون • وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام• فاما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء • واما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعا ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعا • ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقا ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالا بغير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم • واما القرآن وان كان من المنثور الا انه خارج عن الوصفين » (١)

ويقول قدامة بن جعفر في حد الشعر : « انه قول موزون مقفى يدل على معنى » (٢)

ويحد ابن رشيق الشعر بقوله : « الشعر يقوم بعد النية من اربعة اشياء وهي : اللفظ والوزن والمعنى والقافية فهذا هو حد الشعر » (٣) •

ان هذه الحدود ناقصة لان ابن جعفر وابن رشيق وابن خلدون

---

(١) مقدمة ص ٤٤٩
(٢) نقد الشعر ص ١٢
(٣) عمدة ص ١١٩

لا يرون في الشعر الا الوزن واللفظ والقافية [1] والمعنى ، بينما الشعر عاطفة وخيال في الدرجة الاولى ثم هو معنى ووزن في الدرجة الثانية • واذا اخذنا بهذه التعريفات للشعر وجب علينا ان نعترف بان المنظومات التي تصنع لتسهيل تعليم القواعد كالفية ابن مالك في النحو شعر •

والحق ان كلا الشعر والنثر ادب قوامه الكلام الفني الجميل والعاطفة والفكر والخيال • وهما يتفقان في انتمائهما الى الادب واحتوائهما على هذه العناصر الاربعة ولكنهما يختلفان في امور ثلاثة :

١) الشعر تغلب فيه العاطفة والخيال على الفكر • بينما في النثر يسود الفكر وتضعف العاطفة والخيال •

٢) الشعر تنتظمه اوزان موسيقية دقيقة بينما النثر لا يخضع للوزن ويرسل فيه الكلام بدون قيود •

٣) في السبق الزمني •

فلنتكلم قليلا في هذه الفروق بين شطري الادب •

١ ــ في العناصر :

أ ــ العاطفة والتفكير : الشعر تغلب عليه صفة التأثير بفضل العاطفة التي تتدفق فيه • ولعل اسم الشعر من شعر اي احس • اما النثر فتطغى عليه صفة الافادة وهو يعتمد على العقل اكثر من العاطفة • وهذا ما اراده البحتري في قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه
والشعر لمح تكفي اشارته وليس كالنثر طولت خطبه

فالشعر ينفر من التحليل والاستقصاء وتقليب المعاني ويؤثر الايحاء والتلميح « فليس الشعر ميدانا تتدافع فيه قواعد المنطق واصوله ولا هو مكلف ان يخضع لها • وهو ان ابتدأ بقاعدة لم يلتزم متابعتها الى غايتها ليسلمك من الغرض الى النتيجة والبرهان • وكيف يكون ذلك ونحن عند الاستماع الى الشاعر نسمو بانفسنا الى حالة روحية

(١) يخالفهم السكاكي في الغاء القافية من التعريف لانها لا تلتزم الشعر الا عرضا والاصل الوزن : مفتاح العلوم ص ٢٧٣ •

مناسبة لاعتقادنا ان الشاعر اعمق منا وهو يغني ويشدو • وهنا نستطيع الاخذ عنه والتخاطب معه بهذه اللغة الموزونة المقفاة • وليس معنى ذلك ان نطلق العنان للشاعر والسامع يسرحان مع عواطفهما الى غير حد • بل يجب على السامع ان يكون متئدا حريصا وعلى الشاعر ان يكون عاطفيا حكيما » (١)

ويقول ابن رشيق ٤٥٦هـ/١٠٧٠م :«والفلسفة وجر الاخبار باب آخر غير الشعر فان وقع فيه شيء منهما فبقدر ، ولا يجب ان يجعلا نصب العين فيكونا متكأ واستراحة ، وانما الشعر ما اطرب وهز النفوس وحرك الطباع • فهذا هو باب الشعر (٢) »

ب ــ الخيال : والخيال في الشعر اظهر منه في النثر • فالشعر تعبير بالخيال كما قال بعضهم وهو من الايحاء • وبذلك يكون للشاعر صفة الرسام والمصور • فمن واجبه ان يجسم المجردات ويشخص الجمادات ويبث الحياة في كل شيء • ويعتمد على المجازات والكنايات والاستعارات • ومن كلام الله : والشعراء يتبعهم الغاوون الم ترهم في كل واد يهيمون يقولون ما لا يفعلون •

ج ــ العبارة : ابيح للشاعر ان يتصرف في تركيب عبارته ما لم يبح للناثر • فقد منح حرية قصوى في تركيب اركان الجملة من تقديم وتأخير وحذف وزيادة •• وسمح له بما ندعوه « الجوازات الشعرية » كمد المقصور وقصر الممدود وتحريك الساكن واسكان المتحرك ومنع المصروف وصرف الممنوع من الصرف ومجاوزة بعض القواعد النحوية •وكل ذلك قصد الملاءمة بين الموسيقى وحركات العبارات •

٢ – في الوزن

الوزن ظاهرة موسيقية في الشعر يتمثل بتقسيم القصيدة الى ابيات متساوية الوزن ينتهي كل منها بحرف واحد اسمه الروى يؤلف جزءا

---

(١) دائرة المعارف البريطانية و اصول النقد الادبي للشايب .
(٢) العمدة

من القافية • وكل بيت ينشطر الى صدر وعجز يتألفان من عدد متساو من التفعيلات • والاوزان تدعى بحورا وقد ضبطها لاول مرة الخليل بن احمد الفراهيدي (١٠٠ــ١٧٠هـ) وهو يعد اكبر عبقرية لغوية عرفها العرب ، وقد ساعده على ذلك خبرته في الموسيقى واشتغاله بها •وقد جردها من الشعر الجاهلي وقسمها الى خمسة عشر وزنا او بحرا ولم يضف اليها فيما بعد الا واحد استحدثه الاخفش ويدعى بحر المتدارك او الخبب • وليس معنى هذا ان البحور الشعرية لا يمكن ان تتعدى هذا العدد فليس ما يمنع من استحداث اوزان جديدة في الشعر • وقد قال ابو العتاهية بيتا لا ينطبق عليه اي وزن من الاوزان المعروفة الستة عشر ولما سئل في ذلك اجاب انني سبقت الخليل الى ذلك •

وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون ٨٠٨هـ/١٤٠٥م : « والشعر كلام مفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة • وتسمى كل قطعة من تلك القطعات عندهم بيتا ، ويسمى الحرف الاخير من كل قطعة رويا ،وتسمى كل جملة الكلام الى آخره قصيدة وكلمة• وينفرد كل بيت منه بافادته في تركيبه حتى كانه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده ••• ولهذه الموازين شروط واحكام تضمنها علم العروض؛ وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن • وانما هي اوزان مخصوصة تسميها اهل تلك الصناعة البحور ، ولقد حصروها في خمسة عشر بحرا بمعنى انهم لم يجدوا للعرب غيرها من الموازين الطبيعية نظما [١] »

ويرى الزهاوي ان لكل شاعر اليوم ان ينظم على اوزان يخترعها • وقد نظم خليل مطران قصيدة على وزن فاعلاتن ٤ مرات [٢] •

ويلاحظ انه كما هو الحال في الموسيقى ثمة فنون تلائمها اوزان اقدر على تصوير ما تعبر عنه من عواطف وافكار • ويمكن ان نستدل من الاسماء التي اطلقها الخليل على البحور بعض مميزاتها • فالطويل غير

---

(١) المقدمة ص ٥٠٢

(٢) الاتجاهات الادبية لانيس المقدسي ص ٤١٩

البسيط غير الهزج الخ .. والبحر الطويل يصلح للحماسة والوصف ، والبحر البسيط يقرب من الطويل الا انه الين واجزل . اما الكامل فيصلح لاكثر الموضوعات ... والوافر الين البحور نكيفه كما نريد فهو يشتد ويرق كما نشاء ويكثر استعماله في المراثي .. والخفيف يقرب من النثر . والرمل رقيق يصلح للموشحات والافراح والاحزان .. والمتقارب يصلح لوصف القتال والسير السريع ؛ والخبب يستحسن في وصف الزحف والمطر ... والرجز حمار الشعر واسهل البحور على النظم [1] .

قال الاخفش : سالت الخليل بعد ان عمل كتاب العروض : لم سميت الطويل طويلا ؟ قال لانه طال بتمام اجزائه . قلت : فالبسيط ؟ قال لانه انبسط عن مدى الطويل وجاء وسطه فعلن واخره فعلن .قلت فالمديد؟ قال لتمديد سباعيه حول خماسيه . قلت فالوافر ؟ قال لوفور اجزائه وتدا بوتد . قلت : فالكامل ؟ قال لان فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر . قلت : فالهزج ؟ قال لانه يضطرب اشبه بهزج الصوت .

قلت فالرجز ؟ قال لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام .

قلت : فالرمل ؟ قال لانه شبه برمل الحصير لضم بعضه الى بعض .

قلت : فالسريع ؟ قال لانه يسرع على اللسان .

قلت : فالمنسرح ؟ قال لانسراحه وسهولته .

قلت : فالخفيف : قال : لانه اخف السباعيات .

قلت : فالمقتضب : قال لانه اقتضب من السريع .

قلت : فالمضارع ؟ قال لانه ضارع المقتضب .

قلت : فالمجتث : قال لانه اجتث اي قطع من طويل دائرته .

قلت فالمتقارب : قال لتقارب اجزائه لانها خماسية كلها يشبه بعضها بعضا .[2] .

---

(١) مقدمة الالياذة ص ٩٠ لسليمان البستاني .

(٢) عمدة ص ١٣٦ .

هـ ـ القافية : كل بيت ينتهي بقافية واهم حروفها الحرف الاخير الذي يدعى رويا • والقافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ولا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية • والقافية من آخر حرف في البيت الى اول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن •والقافية تثبت الوزن وتميز الابيات وتكون غنية او فقيرة مذكرة او مؤنثة•وقوافي الشعر او بحوره يجود بعضها في موضع دون غيره • فالقاف يجود في الشدة والحرب ، والدال في الفخر والحماسة ،والميم في الوصف،والباء والراء في الغزل • ونغمة الراء مكسورة تختلف عنها مضمومة • واول ما يجب اجتنابه القوافي الضيقة لانها تؤدي الى استعمال الوحشي[1] •

وقد حافظت القصيدة العربية منذ الجاهلية على وحدة الوزن ووحدة القافية • بيد انه حدث بعض التطور في الاوزان والقوافي • ومنذ بشار ١٦٧هـ تحرر بعض الشعراء من وحدة القافية في المزدوجات والمثلثات والمخمسات •• ثم تحرر الاندلسيون من وحدة الوزن والقافية معافي موشحاتهم ؛ فاذا كان العصر الحديث واحتك العرب بالغرب قامت دعوة الى نبذ الوزن اطلاقا في الشعر وكان حملة لواء هذه الدعوة من الادباء المهجريين ثم من الجيل الجديد • وظهر هذا الاتجاه في ما ندعوه : النثر الشعري والشعر المنثور والشعر المطلق[2] •

والنثر الشعري اسلوب من اساليب النثر تغلب فيه الروح الشعرية من قوة في العاطفة وبعد في الخيال وايقاع في التركيب وتوفر على المجاز • وقد عرف بذلك كثيرون وفي مقدمتهم جبران خليل جبران ،حتى صاروا يقولون الطريقة الجبرانية •

على ان الشعر المنثور غير هذا النثر الخيالي • وانما هو محاولة جديدة قام بها البعض محكاة للشعر الافرنجي • وممن فتحوا هذا الباب امين الريحاني •

---

(١) مقدمة الالياذة ص ٩٥

(٢) الاتجاهات الادبية ص ٤١٩

اما الشعر المطلق فلم تسفر محاولته عن اثر يذكر • وهذا الاتجاه اعوج لانه يحرم الادب من فن لا يقل عن الادب روعة هو الموسيقى • والعربية لا يصلح شعرها بدون قافية لانها لغة قياسية رنانة [1] •

ان وجود الوزن في الشعر يمكن ان نعلله بسببين •

١ ــ ان الشعر تعبير عن العاطفة ، والعاطفة انفعال قوي يحمل صاحبه على الاتيان بحركات فيها تكرار ومشابهة ، كما هو الحال في الحزن الشديد او الفرح القوي ، اذ نرى المفجوع مثلا يردد عبارات متشابهة ويقوم بحركات متشابهة (نداء •• لطم) •[2] •

٢ ــ ان الشعر نشأ نشأة غنائية • فمن المقرر ان اوزان العروض والموسيقى تعود الى اصل واحد • وقد غنى الانسان اولا وعندما استعمل الكلام في غنائه احدث شعرا • يدل على ما نذهب اليه ان الشعراء كانوا يغنون اشعارهم : فالمهلهل ٥٣١م اقدم شعراء العرب واول من قصد القصائد كان يغني شعره • وكذلك امرؤ القيس ٥٤٠م والسليك ابن السلكة ٥٦٠ م والاعشى ٦٢٩م الذي لقب بصناجة العرب لانه كان يوقع غناءه على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج • ولذا قيل غنى الشعر وانشد الشعر • وقيل ان لفظة شعر من تشير العبرانية ومعناها الترتيلة •

ومن مظاهر الغناء في الشعر ايضا الجوقات والقيان والرقص •يقول اسحق الموصلي : وغناء العرب قديما على ثلاثة اوجه : النصب والسناد والهزج، فاما النصب فغناء الركبان والقينات وهو الذي يستعمل في المراثي وكله يخرج من اصل الطويل في العروض • واما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات • واما الهزج فالخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم •

فاستعمال الفاظ مشتركة بين الغناء والعروض مثل الهزج والرمل

(١) مقدمة الالياذة لسليمان البستاني ص ٩٥
(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة .

وغيرهما يدل على نشأة الشعر الغنائية • وكذلك من مظاهر الغنـــاء في الشعر القافية فهي واضحة الصلة بضربات المغنين وايقاعات الراقصين • انها بقية العزف وانها لتعيد للاذن تصفيق الايدي وقرع بالطبول ونقر الدفوف كما تعيد ذلك شارات اخرى للغناء نجدها في الشعـــر القديم ، منها التصريع •[1] •

وقد تضاربت الاقوال في نشأة الاوزان العروضية في الشعر العربي• ويذهب جرجي زيدان ١٩١٤ م الى ان الوزن مأخوذ في الاصل من توقيع سير الجمال في الصحراء وتقطيعه يوافق وقع خطاها • ويؤيد ذلك ان الرجز اول ما استعمله العرب لسوق الجمال وهو الحداء في اصطلاحهم وكان وضع لهذا الغرض لان العربي يقضي اكثر اوقاته في معاشرة جملـــه او ناقته • [2]

ومن الباحثين من يقول ان عروض العرب نشأ على اساس شعـــر اليونان • اما بروكلمن ١٩٥٦م فقد رد هـــذين الرأيـــن بقوله : امـــا الاوزان العروضية فلا ريب ان بناءها تم بتأثير فن غنائي كالحداء •

وقد ضل العلماء الذين ارادوا ان يربطوا بين انواع من العروض وبين سير الابـــل •

كذلك اخطأ تكاتش في زعمه ان عروض العرب نشأ على اساس شعر اليونان لان الرجز لا يشبه العروض اليوناني الثلاثي التفعيلات الا شبهـــا ظاهرا •[3] •

٣ ــ أيهما كان أسبق الى الظهور ؟ الشعر أم النثر .

نلفي مذهبين متناقضين هما : ــ

١ ــ الشعر سبق النثر للاسباب التالية : ــ

أ ــ ان الشعر لغة الخيال والعاطفة بينما النثر لغة الفكر • والانسان

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٦ .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ص ٦٥
(٣) تاريخ الآداب العربية ص ٥١ ج ١

في بداوته تكون العاطفة والخيال فيه اقوى من الفكر •فمن الطبيعي اذن ان يعتمد الشعر للتعبير عن ذاته التي تسودها العاطفة والخيال اولا • فاذا تطور وارتقى عقله ، وجدت انظمة وآراء احتاج الى تصويرها واعلانها ، وعجز الشعر عن ان يعبر عنها ، اضطر ان يعبر عن هذه الحاجات باوسع من الشعر فعبر عنها بالنثر •

ب ــ لا نجد عند الامم نثرا قد سبق الشعر • عندما نلاحظ تاريخ الامم كالامة اليونانية مثلا نراها اولا شاعرة تنشىء الشعر قصصيا ثم غنائيا ثم تمثيليا ولا ينشأ النثر عندها الا في وقت الاضطراب السياسي• وهذا ما نلاحظه عند الامة العربية في العصر الاول قبل الاسلام • كانت امة شعر لها حياتها الاجتماعية والسياسية الخاصة تعتمد في هذين النوعين من الحياة على الشعر اعتمادا تاما • تقوض النظام السياسي وحل محل النظام القديم نظام جديد يعتمد على وحدة الامة العربية واخضاع الامم الاجنبية وادماجها في الاسلام ••• فنشأ عن هذا كله ان تغيرت الحياة وتغيرت موضوعات التفكير واستلزم ذلك تغيير العبارة التي يعبرون بها عما في انفسهم ، ونشأ لهم لسان جديد لم يكن لهم من قبل وهو النثر الذي يعبر عن المعاني بدون القيود الشعرية (١) •

ح ــ الشعر متصل بالغناء والغناء نشأ مبكرا في حياة الشعوب •

د ــ ان الكتابة اخترعت مؤخرا ، وبما ان النثر بحاجة الى التدوين والكتابة اكثر من الشعر الذي يسهل حفظه بالذاكرة لذلك كان من الطبيعي ان يتأخر النثر عن الشعر •

٢ ــ النثر سبق الشعر للاسباب التالية :

أ ــ انه اسهل انشاء • فالشعر يلزمه صناعة ورسوم وقيود كالوزن والقافية بعكس النثر الذي يرسل ارسالا •

ب ــ ان هذا النثر يتلاءم مع مستوى الشعب العقلي في بداوته وليس من الضروري ان يتضمن افكارا راقية •

(١) من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٢٦ وما بعدها . ج١ .

ج ــ ليس النثر معدوما في جاهلية الامم وانما هو قليل بالنسبة للشعر لانه ضاع بسبب عسر حفظه وتاخر الكتابة .

د ــ اذا نظرنا في نشأة الشعر وجدنا انه قام على اساس النثر . فينبغي ان يكون اقدم القوالب الفنية العربية هو السجع اي النثر المقفى المجرد من الوزن . وكان الكهنة يصوغون كلامهم بالسجع . ويبدو ان النقوش اليمنية فيها اتجاه الى استعمال القافية .وترقى السجع الى بحر الرجز ، ومن الرجز نشأ بناء ابحر العروض [1]

فالغالب انهم بدأوا اولا بالسجع بلا وزن على نحو ما وصل الينا من سجع الكهان . اما النظم اي القياس بالمقطع وهو الوزن فابسطه الرجز وهو اقدم اوزان الشعر يزعم العرب ان اول من قاله مضر بن نزار اذ سقط عن جمله فانكسرت يده فحملوه وهو يقول « وايداه وايداه »وكان من احسن خلق الله صوتا ، فاصغت اليه الابل وجدت في السير فجعلت العرب مثالا لقوله (هايدا هايدا) « يحدون به الابل » قالوا : وكان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم اخلاقها وطيب اعراقها وذكر ايامها الصالحة واوطانها النازحة وفرسانها الامجاد .. فتوهموا اعاريض جعلوها موازين للكلام . فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لانهم شعروا به اي فطنوا له . [2]

وكما اختلف الباحثون في اسبقية كل من الشعر والنثر اختلفوا في اسبقية الفنون الادبية التي يتفرع اليها شطرا الادب .

قال بعضهم ان الملحمة اقدم الفنون الشعرية لانها تتلاءم مع المستوى العقلي لبداوة الشعوب اذ تقوى المخيلة ويضعف التفكير وتسود القوة نظام المجتمع وتندمج شخصية الفرد بالجماعة .

ثم عندما يتقدم الانسان في الحضارة يشعر بشخصيته في المجتمع فينشأ الفن الغنائي الذي يعبر عن الذات الشخصية .

فاذا بلغ الانسان مستوى حضاريا رفيعا وتقادم العهد بين حاضره وماضيه شعر بالحاجة لاحياء ذلك الماضي بشخصياته واحداثه فيلجأ

---

(١) تاريخ الاداب العربية لبرو كلمن ص ٥١ ــ ٥٢ ج١ .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ص ٦٤ .

الى الشعر التمثيلي ليعيد له ما تقادم من عهد .

من هؤلاء طه حسين اذ يقول : « عندما نلاحظ تاريخ الامم كالامة اليونانية مثلا نرها اولا شاعرة تنشىء الشعر قصيا ثم غنائيا ثم تمثيليا .»[1]

ويقول جرجي زيدان : ويقسم الشعر عند الافرنج الى ثلاثة انواع الشعر القصصي والشعر الغنائي والشعر التمثيلي . فالشعر القصصي اقدمها ... ثم قالوا الشعر الغنائي (اليونان) وقد نضج عندهم نحو القرن السابع قبل الميلاد .. ثم رأوا الكلام وحده لا يكفي لتحريك العواطف وتمثيل الفضائل فعمدوا الى تمثيلها للعيان .[2] .

ولكن فريقا اخر لا يؤيد هذه النظرية بل يرفضها ويزعم ان الفنون الشعرية ظهرت على التوالي غنائية ثم ملحمية ثم تمثيلية ؛ منهم سليمان البستاني ، واحمد حسن الزيات .

اما في النثر فاقدم الاثار التي انتهت الينا من العصر الجاهلي الامثال والحكم والخطابة والوصايا . اما التصنيف فقد تأخر الى العهد العباسي وكذلك النقد والقصة والمقالة والرحلات ، فقد ظهرت فيما بعد واكتمل نموها في العصر الحديث .

ولا بد لنا من القول ان نظرية التفريق بين الفنون الادبية ولا سيما بين الشعر والنثر لا ينبغي ان يفهم منها ان ثمة حواجز فاصلة بينها لا يمكن ان تتخطى . فقد الفت ملاحم ومسرحيات نثرا كما نظمت شعرا . فمسرح احمد شوقي شعري بينما مسرح توفيق الحكيم نثري .

كما اننا نلاحظ تطورات خطيرة في حياة الشعر والنثر .

فالملحمة تكاد تنقرض في الادب الحديث ،والمسرحية تعتمد النثر بدلا من الشعر ، وتزاحمها القصة وتكاد تطغى عليها . ولم يبق مزدهرا سوى الفن الغنائي .

اما النثر فقد نما نموا هائلا فاتسع ميدانه واحتل مجالات كانت مخصصة للشعر ، ويمكن ان نعزو ذلك الى نمو ملكة التفكير عند الانسان الحديث وهي عماد النثر بينما يضعف الخيال وتنضب العاطفة وهما قوام الشعر .

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٢٧

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ص ٦٢

أهمية الأسلوب

الفن والاسلوب

لم يخطىء المعجم العربي حين عرف الاسلوب بانه الفن وان تكن لفظة فن تعني اليوم غير ما كانوا يعنون بها قديما • فالواقع ان الاسلوب هو الفن بعينه • اليس الاسلوب طريقة التعبير عن التفكير باختيار الالفاظ ورصفها في عبارات جميلة ؟ وهل الفن شيء غير هذا ؟ الا يقوم فن الموسيقى على اختيار الاصوات وتلحينها في انغام منسجمة ؟ الا يقوم فن التصوير في اختيار الالوان ومزاوجتها في اشكال متناسقة ؟ •

اجل الفن اختيار وتنسيق للمواد الفنية : للكلمات في الادب، للالوان في التصوير ، للاصوات في الموسيقى ، للحجارة في العمارة ، وهذا الاختيار والتنسيق عمل شاق صعب ، ولكن الانتصار على هذه الصعوبة محك للعبقرية وولادة للفن ولذا قيل « الفن انتصار على الصعوبات » •

الاسلوب والادب

اذا حللنا اثرا ادبيا نجد فيه الى جانب الاسلوب عناصر اخرى هي الفكر والعاطفة والخيال • فما هي اهمية الاسلوب بالنسبة لهذه العناصر ؟

كثر الكلام حول هذا الموضوع وحفلت كتب النقد مثل الشعر والشعراء لابن قتيبه ٢٧٦هـ/٨٨٩م والموازنة للآمدي ٣٧١هـ/٩٨٧م • والوساطة للجرجاني ٣٩٢هـ/١٠٠١م والعمدة لابن رشيق القيرواني ٤٥٦هـ ١٠٧٠ م وغيرها بالاراء المتضاربة • غير اننا نستطيع ان نميز فيها ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الاول : يذهب هذا الاتجاه الى ان الاسلوب لا قيمة له فهو ثوب خارجي ترتديه الفكرة لتظهر للعيان وتخلعه متى تشاء ، وانما قيمة الادب تكمن فيما ينطوي عليه من حكم وتعاليم واخلاق اذا خلا منها غدا ثرثرة ومفسدة • وقد ظهر هذا الاتجاه في الاحكام النقدية التي كانت تصدر عن الفقهاء والمصلحين ، وتمثل ايضا في الادب التعليمي كشعر

زهير بن ابي سلمى والادب الكبير والصغير لابن المقفع وبعض المنظومات التي تهدف لتقنين قواعد النحو كالفية ابن مالك ٦٧٢ هـ وبعض اشعار ناصيف اليازجي ١٨٧١م ، والامثال وغيرها .

الاتجاه الثاني ـ يغلو هذا الاتجاه في تقويم الاسلوب ويهمل المعنى ويعتبر ان الادب في الالفاظ لا في المعاني ، فالمعاني مطروحة يتناولها من يشاء انى يشاء ، اما طريقة التعبير عنها فهي العنصر الاصيل والقيم في الانتاج . يقول الجاحظ : « وذهب جماعة الى استحسان المعاني والمعاني مطروحة وسط الطريق ... وانما الشعر صياغة » [1] ، ويقول الآمدي ٣٧١هـ/٩٨٧م . في معرض موازنته بين أبي تمام والبحتري : « فاذا اتفق هذا مع معنى لطيف او حكمة غريبة او ادب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام ، واذا لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه ... والشاعر الذي يأتي بحكمة يونان او الهند مع سيء اللفظ فهو حكيم او فيلسوف وليس بشاعر . » [2] .

فاذا انتهينا الى ابن خلدون ٨٠٨هـ/١٤٠٥م نسمعه يردد الفكرة نفسها : « ان صناعة الكلام نثرا ونظما انما هي في الالفاظ لا في المعاني » [3] .

واذا نظرنا كتب النقد القديمة نرى معظمها يتجه هذا الاتجاه ويعنى بدراسة الاسلوب اكثر من المعنى . منها كتاب البديع لابن المعتز ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م. والصناعتين لابي هلال العسكري ٣٩٥هـ/١٠٠٥م. والعمدة لابن رشيق القيرواني ٤٥٦هـ/١٠٧٠م. والمثل السائر لابن الاثير ٦٢٧هـ/ ١٢٣٩م. فموضوعات ابحاثهم تنحصر في تراكيب الجمل الصرفية والنحوية وفي الاسناد والايجاز ، والفصل والوصل ، والتشبيه ، والاستعارة ، والمجاز ، والكناية ، والتجنيس ، والطباق والسجع الخ ...

---

(١) البيان والتبين ج١ ص ١٥٨

(٢) الموازنة ص ٣٥٠ وما بعدها

(٣) المقدمة صفحة ٥٠٨ .

اما الادب الانشائي شعرا ونثرا فلم يقل كلفا بالصناعة اللفظيـــة وعناية بتوفير المحسنات البديعية والبيانية ، وقد كانت هذه العناية طبيعية في العصر الجاهلي والعصر الاموي ، اما في العصر العباسي فقد اشتدت وأسرف فيها في أواخر هذا العصر وخلال عصور الانحطاط أيما أسراف ، وطغى التصنع في الصياغة حتى استحال الادب الى ضرب من الالاعيب اللغوية والزخارف البديعة ، مما يظهر واضحـا في المقامات والبديعيات وغيرها • ويعبر الجرجاني في الوساطة عن هذا الاتجاه فيقول : « وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن وشرف المعنى وصحة وجزالة اللفظ واستقامته ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفـل بالابداع والاستعارة ، ••• وقد كان يقع ذلك في خلال قصايدها ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد • فلما افضى الشعـر الى المحدثين ورأوا مواقع تلك الابيات من الغرابة والحسن تكلفوا الاحتذاء بها [1] »

وبتأثير هذا الكلف بالاسلوب وهذا الاهمال للمعاني قل توليـد الافكار وكثر الترديد وشاعت السرقات الادبية • واذا القينا نظرة على فن الرثاء أو الغزل أو المديح أو الهجـاء أو أي فن آخر ، نلفي الافكار ذاتها يرددها الخلف عن السلف ونلقى بعض الشعراء يردد منذ الجاهلية ان الشعراء لم يغادروا له شيئا يقوله • ويذكر الآمدى أن خصوم أبي تمام لم يعثروا في شعره الخصب الا على ثلاثة معان ، بينما يورد القاضي الجرجاني وغيره مئات الابيات في باب السرقات يتعاورها فحول الشعراء امثال ابي نواس ١٩٨هـ والبحتري ٢٨٤هـ والمتنبي ٣٥٤هـ وغيرهم •

ويرى بعضهم ان الادب العربي لم يتطور الا في اسلوبه او فنه[2] اما الموضوعات الادبية فلم تتجدد تجددا يذكر ؛ وبقي الادب العربي غنائيا ولم يعرف الملحمة ولا المسرحية ولا القصة الا حديثا تقليدا للغربيين •[3]

---

(١) الوساطة ص ٣٥

(٢) شوقي ضيف في كتابيه الفن ومذاهبه في الشعـر العربي والفـن ومذاهبه في النثر العربي .

(٣) حديث الاربعاء لطه حسين ج١ ص ٨

ـ الاتجاه الثالث : يوفق هذا الاتجاه بين الاتجاهين السابقين ويقول ان الادب يقوم على دعامتين هما المبنى والمعنى ، فاذا فقد احدهما هوى وانحط . وكان اول من اعلن هذا الاتجاه ابن قتيبه ٢٧٦هـ/٨٨٩م في كتابه «الشعر والشعراء » فقد قسم الشعر الى اربعة اقسام هي :

١ ـ قسم حسن لفظه وجاد معناه .

٢ ـ قسم جاد معناه وساء لفظه .

٣ ـ قسم حسن لفظه وساء معناه .

٤ ـ قسم ساء معناه ولفظه معا .

والقسم الاول خيرها يقول : « وخير الشعر ما حسن لفظه وجاد معناه » (١)

وفي النتاج الادبي نلفي الفحول من الشعراء والادباء هم الذين عنوا بالمعنى والمبنى معا او بالمعنى والاسلوب ، فاتحفوا الادب العربي بروائع خالدات كالجاحظ ٢٥٥ هـ وابي تمام ٢٣٢هـ . والمتنبي ٣٥٤ هـ وابي العلاء المعري ٤٤٩هـ وغيرهم ، مما يشهد على استقامة هذا الاتجاه الاخير وصحته .

(١) الشعر والشعراء ص ٩ وما بعدها .

فهرس المراجع

آمدي ـ الحسن بن بشر ٣٧١هـ ٩٨٧م	الموازنة	مطبعة الجوائب الاستانة ١٢٨٧
ابن الاثير ـ ضياء الدين ٦٣٧هـ ١٢٣٩م	المثل السائر	مطبعة بولاق القاهرة ١٢٨٢
ابن خلدون ـ عبد الرحمن ٨٠٨هـ/١٤٠٦م	المقدمة	المطبعة الازهرية ١٩٣٠
ابن قتيبة ٢٧٦هـ/٨٨٩م	الشعر والشعراء	دار الفكر بيروت
ابن جعفر ـ قدامه ٣٣٧ هـ ١٩٤٩ م	جواهر الالفاظ	مكتبة الخانجي ١٩٣٢
ابن جعفر ـ قدامه	نقد الشعر	المطبعة البوليسية حريصا ١٩٣٨
ابن جعفر ـ قدامه	نقد النثر	الجامعة المصرية ١٩٣٢
ابن رشيق ٤٦٣هـ/١٠٧٠م	العمدة	مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥
امين ـ احمد	فجر الاسلام ضحى الاسلام	مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦
ارسطو ٣٣٢ ق.م	الخطابة	ترجمة ابراهيم سلامه
ارسطو	فن الشعر	ترجمة عبد الرحمن بدوي
اسماعيل ، عز الدين	الاسس الجمالية في النقد الادبي	دار الفكر العربي
بروكلمان ـ كارل ١٩٥٦ م	تاريخ الاداب العربية	ترجمة عبد الحليم النجار
بستاني سليمان	مقدمة الالياذة	
بستاني ـ فؤاد افرام	المجاني الحديثة	منشورات الاداب الشرقية ٩٥٠
بستاني ـ فؤاد افرام	الروائع	
جرجاني علي بن عبد العزيز ٤٧١هـ/١٠٧٩م	الوساطة	قاهرة مكتبة صبيح احمد الزين
جرجاني ـ عبد القاهر	دلائل الاعجاز	مطبعة المنار ١٣٣١
جرجاني ـ عبد القاهر	اسرار البلاغة	مطبعة وزارة المعارف استنبول
جاحظ ٢٥٥هـ/٨٦٨م	البيان والتبيين	مطبعة السندوبي ومختصر جبر
جويو ١٨٣٧م	مسائل فلسفة الفن المعاصر	ترجمة الدروبي دار الكتاب العربي
حسن ـ محمد عبد الغني	الشعر العربي في المهجر	مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٥٨
حسين ـ طه	في الادب الجاهلي	

حسين ـ طه	من حديث الشعر والنثر	
حسين ـ طه	حديث الاربعاء	دار المعارف ١٩٦٠
حكيم ـ توفيق	فن الادب	القاهرة مكتبة الاداب ١٩٥٢
خولي ـ امين	فن القول	
زيات ـ احمد حسن	تاريخ الادب العربي	مكتبة الانجلو ١٩٥٥
زيات ـ احمد حسن	في اصول الادب	مطبعة الرسالة ١٩٤٦
زيدان ـ جرجي ١٩١٤م	تاريخ اداب اللغة العربية	دار الهلال ١٩٥٧
سكاكي ٦٢٦هـ/١٢٢٨م	مفتاح العلوم	المطبعة اليمنية ١٣١٨هـ
سويف ـ مصطفى	الاسس النفسية للابداع الفني	دار المعارف ١٩٤٨
سيوطي ٩١١هـ/١٥٠٥م	المزهر	مطبعةمحمد عارفقاهرة ٢٨٢
شايب ـ احمد	الاسلوب	مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦
شايب ـ احمد	اصول النقد الادبي	مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥
ضومط ـ جبر	فلسفة اللغة	بعبدا ـ ١٨٩٨
ضيف ـ احمد	مقدمة الدراسة بلاغة العرب	مطبعة السفور ١٩٢١
ضيف ـ شوقي	الفن ومذاهبه في الشعر العربي	مكتبة الاندلس ـ بيروت ١٩٥٦
ضيف ـ شوقي	الفن ومذاهبه في النثر العربي	دار المعارف ١٩٦٠
ضيف شوقي	فن الرثاء	دار المعارف ١٩٥٥
عسكري ـ ابو هلال ٣٩٥هـ ١٠٠٥م	الفروق	مكتبة القدسي قاهرة ١٣٥٣ هـ
عسكري ـ ابو هلال	الصناعتين	استانة مطبعة محمود بك١٣١٩
عبد المجيد عبد العزيز	اللغة العربية اصولها النفسية وطرق تدريسها	دار المعارف
عقاد ـ عباس محمود	مراجعات في الادب والفن	
عقاد ـ عباس محمود	ابن الرومي	
غريب ـ روز	النقد الجمالي واثره عند العرب	دار العلم للملايين ١٩٥٢
فاخوري ـ عمر	الفصول الاربعة	دار المكشوف ١٩٤١
مازني ـ ابراهيم عبد القادر	حصاد الهشيم	الدار القومية للطباعة والنشر
المرزباني ـ محمد ابن عمران	الموشح	

مبارك زكي	النثر الفني	دار الكتب المصرية ١٩٣٤
مبارك ــ زكي	الموازنة بين الشعراء	المقتطف القاهرة ١٩٢٦
مقدسي ــ انيس الخوري	الاتجاهات الادبية في الادب العربي المعاصر	دار العلم للملايين
مقدسي ــ انيس الخوري	تطور الاساليب النثرية في الادب العربي	بيروت مطبعة سركيس
مندور ــ محمد	النقد المنهجي عند العرب	مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
مندور ــ محمد	فن الشعر	دار القلم ١٩٦١
نيلينو	تاريخ الادب العربي	
وافي ــ علي عبد الواحد	فقه اللغة	لجنة البيان العربي ١٩٥٦

Jean Suberville — Théories de L,art et des genres littéraires. Paris - 1960 5ème Edition

Marcel Cressot — Le style et ses techniques . Presses universitaires . Paris 1959

Pierre Guiraud — La Stylistique Paris - Presses universitaires de France . 1957 .

Van tieghem — petite histoire de grandes doctrines litterraires .

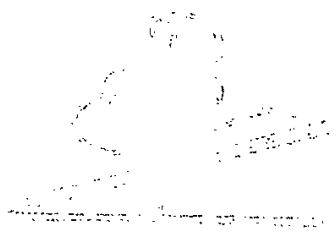

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحه
المقدمة	٣
مفهوم الاسلوب عند الغربيين	٥
« « « العرب	٩
موضوع الاسلوب	١٥
صفات الاسلوب	٢٥
الوضوح	٢٥
القوة	٤٢
الجمال	٤٨
العوامل المؤثرة في الاسلوب	٦٢
اهم اساليب الادب الشعر والنثر	٧٤
اهمية الاسلوب	٨٥
فهرس المراجع	٨٩

خطأ وصواب

وردت في الكتاب بعض الاخطاء المطبعية نرجو التنبه اليها

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	١	المبادى	المبادىء
٢٨	١٨	المنبرسمين	المبرسمين
٣٣	٢٦	السيوطي	للسيوطي
٣٤	١٩	المحك	المحكك
٣٧	٧	للقصدة	للقصيدة
٤٨	١١	الآله	الإلـه
٥٤	٢٦	(١)	(٢)
٥٤	١٠	الامدي	الآمدي

تم طبع هذا الكتاب في الخامس والعشرين من شهر تشرين
الاول سنة ١٩٦٨ »